

أدب الحج في المشرق العربي

د. يوسف حسن العارف

مدخل و تمهيد

الحج رحلة مباركة، رحلة إيمانية، يهجر فيها الحاج أهله وأرضه ليتصل اتصالاً مباشراً بالمشاعر المقدسة، ابتداءً من الكعبة وما حولها من مشاعر، وانتهاءً بعرفات ومزدلفة ومنى ثم المدينة المنورة.

ولقد كان ممن يحظى بشرف هذه الرحلة كثير من رجال الفكر والعلم والأدب الذين انصهرت قلوبهم بحب الله ورسوله، وسعوا طوال أيامهم لكي يحرزوا هذه المكرمة الربانية، ويحظوا بهذا الشرف العظيم فيحجوا البيت الحرام، ويشاهدوا عظمة الحق

ونور النبوة التي سطعت في هذه البقعة المباركة، وانتشرت إلى كل أصقاع الدنيا، فتحقق لهم ذلك وسجلوا ما شاهدوه وما وجدوه من صعوبات ومهالك ورووا أحداثاً أملت بهم بعضها يسر وبعضها يدمي الخاطر. ولقد سجلوا كل ذلك بعبارات منمقة كلها تدل على أدب وثقافة وعلم وقدرة على الصياغة اللغوية والأسلوبية، مستخدمين في ذلك كل الدقة والأمانة العلمية، فأصبح لدينا سجل متكامل لأحوال الأمة الإسلامية التي كانت تصل وفودها إلى الحج في كل عام.

الفارسي شرقاً، وما بين البحر المتوسط شمالاً والصحراء الكبرى والمحيط الهندي جنوباً.

ويتعمق هذا المفهوم عندما يجمع المؤرخون على أن دول هذه المنطقة يوحدتها اللسان العربي والدين الإسلامي، وبذلك يقسمون المنطقة إلى جزئين: شرقي وغربي. وينتظم الجزء الشرقي دول الخليج الفارسي والجزيرة العربية، ودول الهلال الخصيب من العراق وحتى سوريا ولبنان وفلسطين، كما يضم في الجهة الغربية البلاد المصرية وما جاورها جنوباً كالسودان مثلاً.

ومن خلال هذه الحدود تتبين الميزة الجغرافية التي توطر هذا الموقع من حيث التقاء القارات الثلاث عنده (آسيا، أفريقيا، أوروبا)، ومن حيث الربط بين العالم الغربي والعالم الآسيوي، كذلك حصانته الطبيعية، حيث تحيط به العديد من البحار والجبال، الأمر الذي يحقق لهذه المنطقة وحدة إقليمية متميزة.

ومن هنا نشأ فرع للأدب أسماه مؤرخو الأدب «أدب الرحلات في مجال الحج» وهو ما يتعلق خصوصاً بفعاليات الحج والحجاج، وما يوطر هذه العبادة من معالم سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية وغيرها مما يتفاعل معه الأديب الحاج ويسطره فيما بعد كتاباً يخلد هذه الرحلة ويوثق ما فيها بأسلوب أدبي رائع ورسين. ونحاول هنا تسليط الضوء على بعض الرحلات الحجية، وما احتوته من عرض ومضمون وأسلوب.

المحور الأول

رحلات الحج من المشرق العربي / رصد وتوثيق / تحليل وتعريف
أولاً: التعريف بالمشرق العربي (جغرافياً - تاريخياً - سياسياً):

ينظر كثير من المؤرخين إلى هذه المنطقة على أنها جزء من الشرق الأوسط الذي تمتد حدوده الجغرافية ما بين المحيط الأطلسي غرباً والخليج

وآخر ميزة لهذه المنطقة العربية أنها أصبحت ميداناً للتنافس الدولي والصراع العالمي، لاستثماره والاستفادة من معطياته، وبالتالي استعمارها أو استخراجه كما هو المصطلح الحديث.

وكما قلنا آنفاً، إن جغرافية هذا الإقليم / المنطقة تجعلنا في صلب العالم العربي والإسلامي، فلا بد - إذاً - من التعريف بالدول العربية التي تدخل ضمن هذا الحيز الجغرافي وهي:

دول الجزيرة العربية (السعودية واليمن).

دول الخليج الفارسي (من عمان إلى الكويت).

دول الهلال الخصيب (العراق - بلاد الشام).

دول الشمال والجنوب الأفريقي من جهة الغرب (وادي النيل / مصر والسودان).

أما تاريخياً وسياسياً، فإن الأدبيات التاريخية السياسية التي تناقش هذا الموضوع تعطيه آفاقاً

مترامية الأبعاد وتجعله في صلب الأحداث التاريخية والطروحات السياسية، وخاصة في العصر الحديث أي منذ أن وحدت أقطاره دولة الخلافة العثمانية، والتي دام توحيدها لهذه المنطقة حوالي ثلاثة قرون وأكثر قليلاً منذ أوائل القرن السادس عشر الميلادي.

ولم يستثمر المجتمع العربي ولا الحكومات العربية هذه الوحدة التي فوجئت بالمد الاستعماري على بلادها، ابتداءً من الحرب العالمية الأولى - ١٩١٤-١٩١٨م والتي مكنت القوى الأوروبية أن تحقق أطماعها في السيطرة على مقدرات هذه المنطقة، وتقسم دولها إلى أجزاء متفرقة وتورث بينها الأحقاد والضغائن.

ومن مجمل هذه التأرخة السياسية والجغرافية لهذه المنطقة - موضوع الدراسة - يتبين أنها تضم أقدس بقاع الأرض التي تهفو إليها قلوب المسلمين وتحج إليها

أفئدتهم، ويحثون الخطى استعداداً للقيام بفريضة الإسلام وشعيرته الخالدة «حج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً»، ومن هؤلاء الحجاج المفكرون والعلماء والأدباء الذين زاروا الأراضي المقدسة حجاجاً ومعتمرين، ودونوا رحلاتهم في كتب حفظها التاريخ، حتى نستفيد منها ونقدم عنها ثبناً وبياناً وإيضاحاً في هذه الأيام المباركة.

وَبِمَا أَنَّ المشرق العربي - جغرافياً - مترامي الأطراف متعدد الجهات والأقطار فقد أفردنا حديثنا عن الجهات التي كثر منها كتاب الرحلات، وتوافر إنتاجهم بين أيدينا، وهذا ما سنطالعه في المبحث التالي.

ثانياً: أهمية كتب رحلات الحج وقيمتها:

من خلال دراسة وتحليل أهم كتب رحلات الحج في المشرق العربي يتضح أنها تتميز بالعناصر التالية:

١- أنها تحمل عقب الأشواق والفترة الإسلامية لدى كتابها، فتحس من كتاباتهم أنه قد تحقق لهم أغلى وأثمن حلم إيماني / عقيدي كانوا يهجون به ويسعون إليه، وهو الوصول إلى الحجاز (مكة والمدينة). وأداء النسك والشعائر المقدسة.

٢- رصد الذكريات وما عايشه كتاب الرحلات في طريقهم إلى الحج من مشاكل ومصاعب.

٣- بيان الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي كانت تغلف الحياة في الحجاز وتؤثر على الحج والحجاج.

٤- المقارنة بين ماضي وأمس الحجاز والأماكن المقدسة، والحجاز في فترته الحديثة أو المعاصرة للحاج مؤلف الرحلة، أي تحديداً بين ثلاث فترات، الفترة العثمانية، وفترة الأشراف الهاشميين، وفترة السعوديين.

٥- بيان العلاقة الشعبية بين أهل الحجاز (مكة والمدينة) وبين ضيوفهم

من حجاج بيت الله، ولا سيما أصحاب القلم والفكر والعلم.

٦ - معرفة اللغة والأسلوب في الفترة التي دوّن فيها الرحالة رحلاتهم وطبعوها ونشروها للقراء، وكذلك الدوافع التي جعلت هؤلاء الرحالة يدونون رحلاتهم ومذكراتهم وتجاربهم.

٧ - التعرف على المذاهب المعاصرة التي تتضح من خلال الحجاج المجتمعين في الأماكن المقدسة في وقت معلوم، وبالتالي ما يخص بلاد الحرمين وسكانها من مذاهب، وتأثير الحجاج فيها وتأثرهم بها.

٨ - معرفة أحوال البلاد التي جاء منها كتاب الرحلات، أي بلدان المشرق العربي، سواء الاقتصادية أو السياسية أو الفكرية أو الثقافية أو الاجتماعية.

٩ - إن هذه الرحلات جاءت سجلاً متكاملًا يرصد ما كان عليه سياسة الحجاز من ظلم للحجاج وأخذهم فادح الضرائب.

١٠ - الاطلاع على فنون وأساليب القول عند مؤلفي هذه الرحلات، فنجد في كتاباتهم المسائل الشرعية، واللطائف الأدبية، والمحطبات المتنوعة.

١١ - تبيان مشاعر الحجاج عند وصولهم إلى الأراضي المقدسة وهفتهم وشوقهم أثناء أداء النسك، من بكاء وخشية وتوبة واستغفار وسعادة وفرح، وأنهم ينسون تعبهم وما صادفوه من مشقة أثناء السفر لهذه البلاد.

١٢ - تتضح من خلال هذه الرحلات معاني الأخوة الإيمانية التي تتجلى أيام الحج، وتحقق الآية الكريمة: ﴿... وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾.

١٣ - ترسم هذه الرحلات صورة لفاعليات الحج وشعائره، وتقارب الحجاج وتكافلهم ومساواتهم، وتنافسهم الشريف في أداء المناسك وتعاونهم عليها.

١٤ - يتضح من خلال كتابات

الرحالة أن الحجاج كانوا يتبادلون أخبار أوطانهم، مما يشكل أنموذجاً للوحدة الإسلامية والرابطة القوية التي تربط بين أجزاء العالم الإسلامي آنذاك، ويتدارسون حلول مشاكلهم. هنا، تتضح قيمة وأهمية هذه الرحلات المشرقية إلى الحجاز لأداء شعيرة الحج، سواء قيمتها الفكرية أو الأدبية أو ما تحمله من رؤى وأفكار تنادي بتطوير الحجاز والأماكن المقدسة وحل مشكلاته مع الحجاج.

ثالثاً: أهم الرحلات من المشرق العربي وأبرزها:

حظي الحجاز بالتعرف على أسماء فكرية لامعة، سجلت حضورها الثقافي من خلال ما دونته على الحجاز من كتب ومذكرات ومقالات حول الحج، وما يرتبط به من فضاء سياسي واجتماعي واقتصادي، الأمر الذي جعل لهذه الرحلات اهتماماً خاصاً بها وبأصحابها، ومن هذه الرحلات المدونة ما يلي:

١/٣ رحلة إبراهيم رفعت باشا: مرآة الحرمين (الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية). يعتبر اللواء إبراهيم باشا من القيادات العسكرية البارزة التي حظيت بقيادة إمارة الحج المصري في أربع سنوات متتالية وهي: عام ١٣١٨هـ / ١٩٠١م، عام ١٣٢٠هـ / ١٩٠٣م، عام ١٣٢١هـ / ١٩٠٤م، عام ١٣٢٥هـ / ١٩٠٨م. وفي كل هذه الرحلات قام بتدوين مشاهداته، منذ أن خرج من مصر، مروراً بالسويس (بجراً)، وحتى جدة.

لقد قسم إبراهيم باشا كتابه إلى ثلاثة أجزاء تحوي كل الرحلات الأربع، وجاء الجزء الأول مهتماً بالعناصر التالية:

أ- الحمل المصري وأهميته التاريخية ودوره في حل كثير من المشاكل الاقتصادية لدى عرب الحجاز، وشرافة الحجاز السياسية.

ب- الطريق من مصر إلى الحجاز عبر السويس بجراً، ثم رابغ،

حيث يحرم منها الحجاج، ثم الوصول إلى جدة، ومظاهر استقبال الحجاج فيها، والحجر الصحي.

ج - السفر إلى مكة من جدة، والطريق الموصلة إليها عبر بحرة وحذاء، ووسائل المواصلات التقليدية في تلك الفترة.

د - وصف مكة وجبالها وشعابها وأماكن إقامة الحجاج، والمطوفين، وذكر الآثار الإسلامية في مكة والمشاعر المقدسة، ووصف كامل ودقيق لشعيرة الحج والمناسك، وكذلك الكعبة المشرفة وبئر زمزم والمقامات داخل الحرم، والمآذن وغيرها من المشاهد المهمة في الحرم وما حوله.

هـ - ذكر أهم قادة الحج من البلدان الإسلامية، وما يقدم لهم من واجب الضيافة والاحترام.

و - وصف الطريق والمواصلات بين المشاعر المقدسة من مكة حتى منى يوم التروية، أو من مكة إلى عرفات، ثم إلى مزدلفة، ثم إلى منى، ثم إلى الحرم

بمكة حرسها الله.

ز - وصف بعض العادات والتقاليد الاجتماعية في مكة المكرمة أثناء الحج.

ح - وصف مشاعر المسافرين نحو المدينة المنورة وزيارة مسجد الرسول ﷺ، والسلام عليه، ثم ذكر وسائل المواصلات ومعاناة الحجاج في هذه المسألة.

ط - وصف المدينة المنورة والآثار الإسلامية فيها، والمساجد التي ينبغي التعرف عليها وزيارتها.

أما الجزء الثاني: فقد خصص للحديث عن الأوبئة والأمراض التي تنتشر أثناء موسم الحج، ويعاني منها الحجاج ويحصل فيهم بسببها وفيات كثيرة. كما يذكر أهم المشافي التي تقدم العلاج، وهي قليلة العدد، ضعيفة الإمكانيات، مما يسهل انتشار الأوبئة والأمراض بين حجاج بيت الله الحرام.

أما الجزء الثالث والأخير: ففيه وصف واستعراض للمشاكل

والمتابع التي يصادفها الحجاج من عربان الحجاز، وسبل التخلص من أذاهم، مرةً بالطرق السلمية ومرةً بطريقة العنف والحرب.

وفيه استعراض ووصف للطريق بين مكة والمدينة المنورة، والمدة التي يقضيها الحجاج في هذا السفر المضي، وذكر للقرى والمراحل التي يقف عندها الحجاج للاستراحة والتزود بالماء.

وفيه كذلك ذكر لبعض العادات، والتقاليد لأبناء البادية وسكان القرى التي يمر منها طريق الحج الحجازي - المدني.

كما نجد في هذا الجزء الحديث عن المشاكل التي تعترض المحمل المصري ووسائل تجاوزها، وذلك ضمن إطار الحديث عن سياسة الشريف حاكم مكة آنذاك.

وأخيراً، هناك ذكر للموازنة المالية التي تصرف على الحج المصري والمحمل، وسبل صرفها في الحجاز، وطريقة توزيعها.

ومن خلال هذه الرحلات التي سجلها ودونها أمير الحج المصري اللواء إبراهيم رفعت باشا يتضح لنا عمق التجربة ومصداقيتها التي نقلها لنا هذا الرحالة عبر كتابه مرآة الحرمين الشريفين، والذي يتميز بالصور الشمسية / الفوتوغرافية لأغلب المشاهد والآثار والأماكن التي جاء ذكرها في كتابه، وهي صور رائعة ونادرة ومعبرة بلغت حوالي ٣٦٢ صورة، كلها تؤرخ للفترة التي حج فيها هذا الرحالة، أي الأعوام ١٣١٨ - ١٣٢٥هـ، الموافق ١٩٠١ - ١٩٠٨م.

٢/٣: رحلة إبراهيم عبدالقادر المازني:

رحلة الحجاز، وهو رجل أديب من كبار الكتاب في مصر، قام برحلته هذه عام ١٩٣٠م الموافق ١٣٤٩هـ، طبعت في العام نفسه بمطابع فؤاد عبدالحق السنباطي بالقاهرة. ثم أعيد تصويرها ونشرها عن طريق مكتبة القاهرة. تطرح هذه الرحلة مجموعةً

من المحاور التي عالجها صاحب الرحلة بأسلوب أدبي شيق يجمع بين ثناياه الجدية والسخرية، وبين إعطاء المعلومة الثقافية والتساؤل الاستنكاري، ومن خلال تحليلها ودراستها يمكن الوصول إلى أهم معطياتها وعناصرها.

أ- إنها رحلة تجيء في بداية العهد السعودي، حيث يفرض هذا الوضع السياسي التاريخي الجديد أن يعقد المؤلف مقارنة بين الحج في هذا العهد والعهد السابق.

ب- يصف الطريق من السويس إلى ينبع عبر طريق البحر، ويذكر ما يشاهده في هذا الطريق، وخاصةً أثناء نزوله في ينبع، متحدثاً عن أميرها آنذاك من قبل ابن سعود، واسمه عبدالعزيز بن معمر.

ج- يصف رابع، وأنها المحطة التي يُحرم من عندها الحجاج المصريون.

د- يتحدث عن ميناء جدة وقائم مقامها الشيخ عبدالله رضا زينل،

وذلك أثناء وصول الباخرة إلى جدة. ه- يصف ميناء جدة، ذاكراً فنادقها ومبانيها وطرقها البلدية فيها، وآثارها وبوابتها الشهيرة، ويقف طويلاً عند قبر حواء.

و- يذكر بعض المعطيات الحضارية التي بدأت تدخل إلى الحجاز مثل الهاتف، ونظام الأكل والأمن والأمان في العهد السعودي، والحضارة التي يستوعبها الحجازيون بسرعة.

ز- يتحدث عن مشاهدته في الطريق من جدة إلى مكة المكرمة، مُركزاً على الأمن ونظام التأديب الذي مارسه النظام السعودي لتحقيق الأمن المفقود في العصور السابقة.

ح- يصف الحرم والكعبة المشرفة، وبئر زمزم والحجر الأسود، وكسوة الكعبة، والمصنع المعد خصيصاً لذلك.

ط- يقف على نقطة جديدة، وهي إنشاء مدرسة للمطوفين.

ي- يصف مقر الملك عبدالعزيز

في مكة واستقبال الأمير فيصل آل سعود نائب الملك على الحجاز.

ك- وأخيراً، يصف زيارة الأمير فيصل للحرم الشريف ودخول الكعبة، وما شاهده من الحجاج المتزاحمين آنذاك، ويصوغها في عبارات تقطر بالسخرية والتهكم.

وفي الجملة، فإن هذه الرحلة قطعة أدبية تتضح فيها روح المازني وثقافته ودعابته وسخريته. وأعتقد أنها ليست رحلة حج، وربما هي عمرة أو زيارة لأنه لم يشر إلى المشاعر المقدسة (عرفات - ومزدلفة - ومنى) التي لا بد لكل حاج يكتب رحلته أن يشير إليها. على أن أهم ما تفيده هذه الرحلة معرفة واقع الحجاز في بداية العهد السعودي وهذا يكفي.

٣/٣: الأمير شكيب أرسلان:
الارتسامات اللطاف في خاطر
الحاج إلى أقدس مطاف «الرحلة
الحجازية»

وهي رصد وتوثيق لرحلة الحج

التي قام بها المؤلف عام ١٣٤٨هـ، ومن خلال دراستها وتحليلها يتضح أنها تحتوي على العناصر التالية:

أ- كان المؤلف في سويسرا أثناء عزمه على الحج، فاتخذ طريق البحر من لوزان إلى بورسعيد في مصر ومنها إلى الحجاز.

ب- يصف طريق البحر من السويس إلى جدة مروراً ببراغ، وهي الطريق نفسها الذي تسلكه رحلات الحج من مصر.

ج- يهدي هذا الكتاب لمجلاة الملك عبدالعزيز آل سعود، وبهذا يتضح أن حجته جاءت في أول العهد السعودي، وهو بذلك يقارن بين عهدين: عهد الأشراف، والعهد السعودي.

د- يصف جدة وميناءها وبحرها وبرها، مشيراً في ذلك كله إلى الأمة العربية ودورها الريادي، وكأنه يُذكر بالقومية العربية ويبشر بها.

هـ- يصف الطريق من جدة إلى مكة المكرمة، ويقف بشكل كبير عند

بجرة الغربية الواقعة بين مكة وجدة،
ويصفها بشكل مهيب .

و- وعندما يصل إلى مكة
المكرمة يصفها ويصف مبانيها ويصف
الحرم والمشاعر المقدسة، وخاصة
عرفات والوقوف بها يوم التاسع من
ذي الحجة، والاختلافات التي تحصل
بين الشيعة والسنة في تحديد هذا اليوم
المعظم والشهر المقدس .

**ينظر كثير من المؤرخين إلى هذه
المنطقة على أنها جزء من الشرق
الأوسط الذي تمتد حدوده الجغرافية
ما بين المحيط الأطلسي غرباً والخليج
الفارسي شرقاً**

ز- يشير إلى قضية المياه في مكة
المكرمة وندرته، وعين زبيدة،
والمساعي السعودية لحل مشكلة
المياه .

ح- يصف حال المطوفين بمكة
والمزورين بالمدينة، ويتعرض لمسألة
الأوقاف بالمدينتين المقدستين،
واعتماد بعض الحكومات على

الأوقاف الخاصة بالحرمين الشريفين .
ط- يتحدث عن الأشراف في
الحج، واستئثارهم بالأراضي وامتلاك
الأماكن الحساسة الرائعة .

ي- يقدم اقتراحات مهمة
للحكومات العربية، للاهتمام بالحج
والمحجاج، وتوعيتهم قبل الوصول إلى
الأراضي المقدسة .

ك- يذكر بعض المشاكل الصحية
أثناء الحج، مثل كثرة البعوض وما
يسببه من أمراض تؤدي إلى وفيات
المحجاج .

ومن خلال هذه العناصر المهمة
تبدو روح الأديب والكاتب، الذي
جمع بين الشعر والأدب والسياسة
والتاريخ ومن أجل ذلك سمي بأمرير
البيان .

٤/٣: رحلة جفمان: (إسماعيل بن
حسين جفمان):

نيل الوطر في ذكر أحوال السفر
إلى الحرم الأزهر والنبي الأنور، وهي
رحلة يمنية تمت عام ١٢٤١هـ، وقد

عُرف صاحبها أنه أحد الرجال المؤثرين في أحداث عصورهم - وعلى الأقل في بلاد اليمن - وليس مجرد عالم، كان له دور في السياسة ومكانة في الشعر والأدب.

ومن خلال التعريف بهذه الرحلة نقف على أهم عناصرها والموضوعات التي تناقشها من وصف الطريق البري والبحري، ووصف معالم الحرمين، والوصول إليهما، وذكر علماء مكة، وطريق العودة إلى اليمن ...

٥/٣: محسن بن عبدالكريم إسحاق ورحلته إلى الحج عام ١٢٣٧هـ:

وهي رحلة منظومة شعراً، ولعل هذا ما يميزها في سياق دراستنا عن أدب الحج في المشرق العربي.

وتأتي هذه الرحلة في سياق الرحلات اليمنية التي وثقها ورصدها وحفظها المؤرخ اليمني الكبير عبدالله محمد الحبشي في كتابه (الرحالة اليمنيون).

والرحالة الذي نتحدث عن رحلته الآن هو العالم المتبحر في شؤون العلم والأدب، الذي كان يعد من نحاة اليمن الكبار وممن يجيد النثر والشعر؛ ولما لهذه الرحلة الدينية إلى المشاعر المقدسة من أهمية عند صاحبها فقد رغب أن يكون تسجيله لها شعراً؛ لأن «النثر في هذا المجال دون مكانته وقدراته الأدبية الفائقة»، كما يقول راصد هذه الرحلات عبدالله محمد الحبشي.

وعلى أية حال فن وجهة نظري، لا يمكن اعتبارها شعراً كما هو متعارف عليه عند دارسي الشعر والنقد المحدثين، ولكنها أقرب إلى النظم من الشعر، بل هي تدخل في باب (الأراجيز)، وهو صنف أدبي ينظم فيه الموضوع نظماً شعرياً، لكل بيت قافيته الموحدة صدرأً وعجزاً.

وبعد دراسة وتحليل هذه الرحلة (القصيد / الأرجوزة)، وما قاله عنها الراصد والمحقق، تتضح لنا مجموعة من العناصر وهي كما يلي:

أ - يذكر في مطلع الرحلة / القصيدة سبب كتابة هذه الذكريات عن رحلته إلى الحج، وأن الدافع لذلك هو التذكرة للأحباب والتحية للأصحاب الذين يقيمون في صنعاء، وتعريفهم بما حصل له في هذه الرحلة / السفر.

ب - يبدأ في ذكر الرحلة وخروجه من صنعاء نحو مكة والحجاز، وذلك يوم الخميس ٢١ شوال ١٢٣٧هـ، ويذكر المراحل التي يسير فيها والقرى والمدن التي ينزل فيها، وذلك كله عن طريق البر، وبواسطة الحمير، بوصف ذلك وسيلة نقل مهمة آنذاك توصلهم إلى ميناء الحديدة.

ج - يصف الطريق من منطقة لأخرى، وما يحدث لهم من مفاجآت سارة وغيرها، ومشاكل بين مجموعة من الحجاج الذين معه، ويذكر الناس الذين استضافوهم أثناء نزولهم.

د - يصف الحديدة - أثناء وصولهم إليها - واستقبال عامل

الحديدة لوفد الحجاج ثم رحيلهم بحراً، ويصف البحر الذي لم يشاهده من قبل، لأنه من أهل الجبال، ويقول في ذلك قولاً جميلاً، حيث يصف البحر بالزمان الذي يجري وأهله في غفلة عنه، وبهذا يستخلص هذا الرحالة حكمة عظيمة يقيس بها أمر الدنيا وأهلها.

هـ - يصف السفن الشراعية التي يركبها الحجاج لأول مرة، وما يحصل لهم من غثيان وأمراض لم يعرفوها من قبل.

و - ولما يصل بحراً القنفذة يصف هذا الميناء، ويرغب في العودة إلى الطريق البري، نظراً لما عاناه من مصاعب في البحر.

ز - ومن القنفذة يتعامل مع الجمال والقوافل بوصفها وسيلة للمواصلات البرية، ويذكر إيجارها الغالي وسعرها المرتفع، كما يذكر من قابل من الحجاج فيها وخاصة من السودان.

ح - يذكر القرى والمراحل التي

ير بها ويقف عندها للراحة والأكل،
ويصفها وصفاً شعرياً جميلاً، حتى
يصل إلى الليث، ومنها إلى الميقات
يللمم، حيث يحرم منه الحجاج.

ط - وحينما يصل إلى مكة مع
قرب صلاة الفجر ويشاهد القناديل
المضاءة على منارات الحرم، يعلن
ابتهاجه وسروره بهذا المنظر، ويبدأ في
مشاعر الحج من طواف وسعي
وصعود إلى عرفة، ويكمل باقي
المناسك.

ي - يصف خروجه من مكة إلى
المدينة، وأهم القرى التي يمر بها،
والمحطات التي يستريح فيها، وما إن
يصل المدينة المنورة حتى يزور
المسجد النبوي، ويصلي فيه، ويسلم
على الحبيب المصطفى ﷺ واصفاً
مشاعره تجاه هذا الموقف العظيم،
ويحتم رحلته بالصلاة على النبي ﷺ.

ومن خلال هذا العرض، نلاحظ
أن النص الشعري مهما كان جيداً، لا
يمكن أن ينقل لنا الصور والمشاهد
والعادات والتقاليد كما ينقلها النثر،

ولهذا فإن قيمة هذه الرحلة تكمن في
لغتها وقدرة مبدعها على الصياغة،
وتعريفنا بالمواطن والمناطق التي يمر
بها ركب الحجيج اليميني في تلك الفترة
ووسائل المواصلات، وما يصادفه
الحجاج من مصاعب وآلام.

٦/٣ الإمام محمد رشيد رضا: رحلة
الحجاز

وهي إحدى الرحلات من
المشرق العربي من مصر، قام بها عام
١٣٣٤هـ الموافق ١٩١٦ / ١٩١٧م.
ومعروف من هو الإمام محمد رشيد
رضا أور رشيد رضا صاحب مجلة المنار
التي كانت صدى لهوموم العالم العربي
والإسلامي في قضايا المصيرية.

يعتبر رشيد رضا من العلماء
المجددين المصلحين، قام بالعديد من
الزيارات والرحلات التي سجل
أكثرها في المنار نشرها في حينها، ثم
جمعها الدكتور يوسف إيبش في كتاب
مطبوع بعنوان رحلات الإمام محمد
رشيد رضا، وكانت الطبعة الأولى في

حزيران / يوليو ١٩٧١م وهي التي نرجع إليها.

ومن ضمن هذه الرحلات التي يوثقها هذا الكتاب رحلته إلى الحج عام ١٩١٦/ ١٩١٧م الموافق ١٣٣٤هـ، والتي بدأ نشرها في مجلته الشهيرة المنار في الأجزاء: ١٠، ٢٠ (١٩١٦- ١٩١٧م).

وبعد تحليل ودراسة الرحلة في مصدرها الثاني الذي سبقت الإشارة إليه، وهو كتاب يوسف إبيش، نخلص إلى الموضوعات التالية:

١ - يشير في بداية رحلته إلى ظروف الحرب العالمية الأولى، وكيف توقف الحج عن طريق البحار، ولكن الله فرج هذه الأزمة في هذا العام بجهود الشريف حسين والتعاهد بين الدول بحق التصرف في البحار.

٢ - ثم يذكر أسباب عدم تمكنه من الحج في السنوات السابقة وهي خوفه من الدولة العثمانية وحكامها الاتحاديين، وعدم استطاعته المالية، وعجز السيدة الوالدة عن الرحيل

كما يقول.

٣- ثم يشير إلى أسباب تأدية الفريضة في هذا العام، ويذكر منها أن الحكومة المصرية قد سمحت بالحج إلى مكة بمبالغ مالية قليلة ودون أي تأمين مالي كما كان في السابق، وأن حكومة الشريف قد سهلت أمور الحج وقضت على كل المنغصات، وأن الاستطاعة المالية والبدنية قد تسهلت، إضافة إلى ذلك الرغبة الشخصية في استثمار هذا الموسم الرباني في النصح والأمر بالمعروف للأمة الإسلامية في المشاعر المقدسة، لاسيما وأن الحجاج في حاجة إلى مثل ذلك.

٤ - يصف بداية الرحلة من القاهرة، بواسطة القطار متجهين إلى السويس، وفيها تم تطعيم الحجاج ضد وباء الكوليرا، ومغادرة السويس في ٢٦ ذوالقعدة.

٥ - يصف الباخرة المسماة (النجيلة) التي حملته مع الحجاج إلى مكة المكرمة، ويقول أنها بطيئة

وقديمة وقذرة وليس بها ضوء
كهربائي...

٦- يشير إلى كثير من البدع
والمنكرات في السفينة من لهو ولعب
وطرب، وما يفعله المتصوفة من ذكر
أقرب إلى الرقص واللعب.

٧- يذكر أنهم أحرموا بالحج
عندما حاذت الباخرة منطقة رابغ.

٨- يشير إلى وصول الحجاج إلى
جدة ويصف مبانيها، والمرسى الذي
ترسو عنده السفن، ويصف الجو في
جدة والمسكن الذي نزل فيه، ومن
قابله واستقبله من القيادات الحجازية
أمثال محمد نصيف وكيل الشريف على
جدة.

٩- يذكر موقف الشريف حسين
من الاهتمام به واستقباله كمفكر
إسلامي وعالم له وزنه وثقله المؤثر في
مجريات السياسة آنذاك.

١٠- يشير إلى بعض البدع التي
يارسها بعض الحجاج، وهي عدم
لبس الإحرام والاعتماد على الفدية،
ويفصل في ذلك تفصيلاً كثيراً.

١١- يذكر سفره من جدة إلى
مكة وسفر المحمل، مشيراً في هذا
الإطار إلى المواصلات وهي الجمال
والحمير، كما يشير إلى أهمية الماء في
هذه الرحلة عبر الطريق إلى مكة. كما
يذكر بحرة التي استراح فيها ويصف
الأمن في الطريق وأنه لم يقع أي
اعتداءات في هذا الموسم ما عدا
حادثة واحدة، وأن الرجال المسلحين
من أمن الطرق متواجدون بشكل
واضح، وأن الفضل في ذلك يعود
للشريف حسين.

١٢- يصف مشاعره عند أداء
المناسك وأثناء التلبية، ويصف الحرم
الشريف والكعبة المعظمة، ويصف
الطواف والسعي والوضع في مكة من
حيث النواحي الاجتماعية والسياسية،
ويشير إلى رخاء المعيشة في مكة طوال
أيام الحج.

١٣- يصف الطريق إلى المشاعر
المقدسة ويقيس المسافات بينها ويُذكر
بحدود المشاعر، ويثبت وصفاً دقيقاً
لكل مشعر من هذه المشاعر استناداً

إلى كتاب الرحلات أمثال محمد لبيب
البتنوني ومحمد صادق باشا وابن
جبير.

يقدم اقتراحاً لتنظيم محلات
إقامة الحجاج في عرفة بشكل أفقي
ويقسمها شارع رئيس وتخصيص كل
ناحية لسكن جماعة من الحجاج
وتوضع لذلك علامات، ويعين لهذا
النظام من يحافظ عليه.

١٤ - يُذكَرُ بالحالة السياسية في
الحجاز في أواخر سنة ١٣٣٤هـ،
ويفرد فصلاً خاصاً، ويلمح في هذا
الجانب إلى مسألة الخلافة ومطالبة
الشريف بها والبيعة له كما تردد في
الصحف المصرية وبين الحجاج، كما
يشير إلى موقف الشريف الرسمي
منها، وهو ما لمس محمد رشيد رضا
وأثبتته في هذه الرحلة.

١٥ - يذكر مشاركته في الحفل
الخطابي السنوي بمبنى الذي يحضره
الشريف وإلقاء كلمة نشرتها جريدة
القبلة، وهي خطبة طويلة أكد فيها
ضرورة الاستقلال عن الحكم العثماني
الذي تقوده جماعة الاتحاد والترقي،
وأن الشريف حسين هو
راعي هذا الاستقلال وأهل له.

١٦ - يصف دخوله الكعبة وما
فيها، حيث تمكن من ذلك يوم الجمعة
١٥ ذي الحجة ١٣٣٤هـ ويبين فضل
ذلك، وأنه اقتداء بالنبي ﷺ.

١٧ - يشير إلى ظاهرة اجتماعية
وهي كثرة الفقراء والمتسولين في مكة

المكرمة وما يجب تجاههم .

١٨ - ثم يصف العودة بعد الحج من مكة إلى جدة ثم إلى مصر بواسطة الباخرة (النجيلة) التي جاؤوا بها . ومن خلال هذا العرض يتضح أن رحلة الإمام محمد رشيد رضا من الرحلات المهمة ؛ لما فيها من صور وأحداث ومشاهدات سياسية واجتماعية واقتصادية ، تفيد الدارس لهذه المسائل .

كما يتضح أسلوب الإمام محمد رشيد رضا الأدبي ، وإيراده الكثير من الموضوعات غير المتعلقة بالحج بشكل مباشر ، وإنما للإحاطة الفكرية والأسلوبية للأديب الكاتب العالم محمد رشيد رضا .

٧/٣ محمد صادق باشا - الرحلات الحجازية - :

وهي أربع رحلات للحج : الأولى عام ١٢٧٧هـ - ١٨٦٠م ، والثانية سنة ١٢٩٧هـ - ١٨٨٠م ، والثالثة عام ١٣٠٢هـ - ١٨٨٤م ،

والرابعة عام ١٣٠٣هـ - ١٨٨٥م .

ولكل رحلة من هذه الرحلات ألف كتاب مطبوع على النحو التالي : الرحلة الأولى بعنوان : «نبذة في استكشاف طريق الأراضي الحجازية من الوجه وينبع البحر إلى المدينة النبوية وبيان خريطتها العسكرية» . الرحلة الثانية بعنوان : «مشعل المحمل في سفر الحج براً» .

الرحلة الثالثة بعنوان : «كوكب الحج في سفر المحمل بحراً وسيره براً» .

الرحلة الرابعة والأخيرة : «مهمة تسليم قح صدقتي مكة المكرمة والمدينة المنورة مجدة» .

وقد قام الباحث محمد همام فكري بإعادة طبعها ونشرها مجتمعةً في كتاب بعنوان «الرحلات الحجازية» ، ضم فيه كل تلك الكتيبات / المؤلفات المتفرقة ، بعد ضبطها وتحقيقها وإضافة بعض العناوين إليها لتكون في متناول الجميع كما يقول .

والمؤلف الأساسي / الرحالة محمد صادق باشا، المهندس والضابط والجغرافي المصري، كان خروجه إلى الحجاز برفقة المحمل المصري بوظيفة أمين الفترة، ومن هنا تكتسب رحلته أهميتها، فهو شاهد عيان ينقل بكل أمانة الأوضاع الحجازية في فترة النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ١٢٧٧هـ - ١٨٦٠م.

تتميز رحلته عن الرحلات السابقة، بأنه تزود بالأجهزة العلمية التي أعانته على تسجيل البيانات ورسم الخرائط وتعيين المحطات، ذكر أسماء النباتات والصخور والجبال وطبيعة الأرض، وهي بذلك تصبح ذات قيمة علمية مميزة، فيها من المعلومات الجغرافية ما لا نجد في سواها من كتب الرحلات الحجازية.

وبعد دراسة وتحليل هذا المنجز الرحلتي وصلنا إلى أهم العناصر والموضوعات التي تناقشها هذه الكتب وهي كما يلي:

الكتاب الأول:

١ - بعد المقدمة، يصف الأداة التي أحضرها معه لقياس المسافات والأبعاد، ويسهب في وصفها حتى تتضح مكوناتها وطريقة عملها.

٢ - يصف رحلته من القاهرة إلى السويس بواسطة القطار، ثم إلى الوجه بواسطة البحر، ويصف ميناء الوجه وصفاً دقيقاً، ويصف انطلاقهم إلى المدينة المنورة بواسطة الجمال.

٣ - يصف القلعة العسكرية والمعروفة بقلعة الوجه، وهي في الطريق بين الوجه والمدينة المنورة بمسافة (٩٠٠٠ متر)، وما يعانیه حرسها من صولة العربان ولصوصيتهم، ويصف الجمال المعدة للركوب وأنها هزيلة.

٤ - يصف الطريق من قلعة الوجه إلى المدينة المنورة والمحطات التي يتوقف عندها الحجاج والزوار، ويشير إلى الأمطار وقلتها.

٥ - وبعد الراحة في كثير من المحطات يصل المؤلف إلى المدينة

المنورة، ويصف حال المزورين والمطوفين وحاجة الحجيج إليهم للتعريف بالمدينة وأماكن الزيارة. كما يصف دخوله إلى الحرم النبوي وصلاته بالروضة ثم السلام على المصطفى ﷺ.

٦- يصف قبور الصحابة في البقيع والمزارات المشهورة هناك، كما يصف خدم المسجد النبوي وهم الأغوات. كما يصف أهل المدينة وأصولهم، والبيوت التي يسكنوها، وتجارتها من التمر لكثرة النخيل إلى غير ذلك.

٧- ينهي هذه الرحلة بالحديث عن طريق العودة من المدينة إلى الجديدة ثم إلى ينبع البحر، واصفاً هذا الطريق ومبيناً المسافات بين كل مرحلة وأخرى، ثم يشير إلى العودة من ينبع إلى السويس بواسطة البحر.

الكتاب الثاني:

وهو خاص برحلة الحج التي قام بها محمد صادق باشا عام ١٢٩٧هـ /

١٨٨٠م، وفيها وصف دقيق لأهم المراحل والمسافات والمنازل والمحطات التي يقف فيها الحاج المصري في طريقه من السويس إلى جدة فمكة المكرمة، والعكس أيضاً أثناء عودته.

ولعل أهم ما جاء في هذا الرحلة ما يلي:

١- يصف العربان - ويقصد بهم البدو من أهل الحجاز - وصفاً غريباً، حيث يشير إلى سوء أديهم، وعدم توقير كبيرهم، وليس لديهم أمان، وشيئتهم الغدر لولا الخوف من السلطان.

٢- يصف دخوله مكة المكرمة والحرم والطواف والسعي، ويورد بعض الأدعية المناسبة للطواف والسعي، أما الحرم فيقف عند وصفه على كل صغيرة وكبيرة، وهو ما لم نجده في كثير من الرحلات التي أطلعنا عليها. ثم يصف المشاعر المقدسة ومناسك الحج في أيامه الأولى.

٣- يقدم لنا صورة واقعية عن

«منى»، وكيف تتحول إلى روائح كريمة من بقايا جثث الهدى والأضاحي والجزور التي تذبح في منى خلال الأيام الثلاثة.

٤- يصف حادثة غريبة، وقعت بين الحجاج المصريين أثناء سفرهم بالباخرة من السويس، حيث ادعى أحد الحجاج القدرة على السحر والشعوذة فخدع أحد الموسرين وأخذ ماله.

٥- يصف الطريق والمراحل والمسافات بين مكة والمدينة حتى يصل إلى مدينة المصطفى ﷺ، وزيارة قبره الكريم والسلام عليه، والذي لا يذكره غيره من المؤرخين هو زيارة المصحف العثماني الموجود بجوار قبر الرسول ﷺ بالحجرة الشريفة، ثم يواصل وصف البقيع وبعض المزارات في المدينة النبوية.

٦- يحتتم رحلته الثانية بفكرة عن صعوبة ومشاق الرحلة للحج من مصر إلى الحجاز وما يعانيه الحاج في سبيل الوصول إلى بيت الله الحرام

ومسجد نبيه ﷺ، وما إن يصلوا إلى تلك الديار المقدسة حتى ينسوا كل تعب ومشقة فيقبلون على الله بقلوب مؤمنة، ولما يكملوا نسكهم، تتحرق الأشواق للعودة للأوطان...

الكتاب الثالث:

وهو رسالة ملحقة بالرحلة السابقة (الثانية) واستكمال لها، «لتم الفائدة وتكتمل»، كما يقول في مقدمة هذه الرحلة.

ومن أهم الموضوعات التي يتعرض لها ما يلي:

١- يكرر ما قاله سابقاً عن وصف الطريق من السويس إلى جدة، مشيراً إلى وصول المحمل واستقباله والاحتفال بذلك.

٢- يصف مكة المكرمة وعادات أهلها في الزواج، ويصف الطريق بين جدة ومكة، كما يصف الحرم المكي.

٣- ولعل الجديد الذي يضيفه في هذه الرحلة، وصفه لتأمين الطريق بين مكة المكرمة والمدينة المنورة من

مهاجمة العربان وقطاع الطريق بأمر شريف مكة .

٤ - يتحدث عن سكان الحجاز والقبائل القاطنة فيه، وغرائب عاداتهم في الملابس والمسكن والزواج وغير ذلك .

٥ - يتحدث عن إحدى القبائل بين رابغ والمدينة وإسمها قبيلة (اللهبة)، ودورها في سرقة الحجاج، ويشير كذلك إلى حوادث النهب في الطريق وموقف الحجاج من ذلك .

٦ - وعندما يصل إلى المدينة المنورة يتحدث عن الشيعة القاطنين بجوار المدينة .

٧ - يورد صوراً نادرة لمكة والمدينة والحرمين الشريفين، وهذه تعد مكسباً للباحثين والمصورين ليؤرّخوا هذه الصور النادرة .

٨ - يشير إلى رحلة جديدة خرج فيها إلى مكة والمدينة في سنة ١٣٠٢هـ / ١٨٨٥م في مهمة رسمية، وهي تسليم صدقة القمح على مستحقيها في الحجاز، وما صادفه من

حوادث وقضايا مثل ثورة عربان بني إبراهيم، كما يصف الكعبة وقد دخلها يوم غسلها، والعادات المتبعة في غسل الكعبة المشرفة .

٩ - يشير إلى حادثة قتل في مكة شهدها وسجلها، قبيل مغادرته مكة إلى جدة ثم السويس ثم إلى القاهرة .

الكتاب الرابع:

وفيه يجمع كثيراً مما كتبه في الكتب الثلاثة السابقة، مما رأى أنه يفيد الحجاج والزوار ليكون علماً يهتدي به براً وبحراً، كما يقول المؤلف محمد صادق باشا، وفيما يلي بيان بأهم الموضوعات التي جمعت في هذا الكتاب .

١ - يتحدث عن الإحرام وشروطه وكيف يحرم الرجل والمرأة .

٢ - ثم يتحدث عن العمرة ومناسك الحج، ويشير إلى كثير من عادات أهل مكة، ويتحدث عن عين زبيدة وجريانها وبناء قناتها بين منبعها في وادي نعمان مروراً بعرفات إلى مكة

المكرمة، ثم يذكر شيئاً عن العملات المستخدمة في الحجاز وأسعارها وقت الحج وبعده.

٣- يشير إلى ولاية الحجاز وحدودها، وهو أول رحالة يذكر هذه الحدود التي يؤكد أنها تمتد من القنفذة وحتى المدينة. ثم يذكر إقليم الحجاز وجغرافيته وسكانه وطبائع أهله.

٤- يصف المشاعر المقدسة وما فيها من مناسك أثناء الحج، ويؤكد على ما يصاحب النفرة من عرفات إلى المزدلفة من احتفالات وموسيقى عسكرية مصاحبة وأصوات الطبول والمزامير، وكل هذا ينافي الروحانية والسكينة المطلوبة في هذا الموقف.

٥- يصف منى وما فيها من نسك، وأهم إشارة في هذا المجال هي ذكر قيمة الذبائح والأضحيات، وكانت من ريال ونصف إلى ثلاثة ونصف، وهذا يفيدنا أثناء الحديث عن الأحوال الاقتصادية.

٦- يصف المدينة المنورة، وكيفية الزيارة، والحرم النبوي،

والمزارات بالمدينة، وعادات أهلها.
٧- وهناك إشارة مهمة إلى الوهابيين، ويقصد السعوديين أهل نجد وحرورهم في المدينة، وينقل عن الجبرتي كيف استسلم الشريف للوهابيين الذين طبقوا السلفية في الحجاز بكل حذافيرها، ومنه وصول المحمل بالصورة المعروفة، وهدم القباب والمزارات في مكة وينبع والمدينة، ويشير في هذا الصدد إلى نهاية الدولة السعودية الأولى على يد محمد علي باشا والدولة العثمانية.

و من خلال هذا الاستعراض السريع لمجمل الموضوعات التي يناقشها الرحالة الحاج محمد صدقي باشا في كتبه ورحلاته الأربع، نلاحظ تميزاً واضحاً في الجانب التفصيلي والتوضيحي الأشمل لكل نواحي الطريق الذي يسلكه الحاج المصري وما فيه من صعوبات ومشاكل، بل إنه يدقق الوصف في كثير من العادات والأخلاق المستحبة والمستقبحة عند

أهل الحجاز عموماً، وهو في وصفه ذلك لا يتجاوز منزلاً أو مرحلة إلا ويذكر كل ما يتعلق بها، فكأنك تشاهدها بعين الحقيقة.

٨/٣ محمد بهجة البيطار الدمشقي:
الرحلة النجدية الحجازية «صور من حياة البادية»

وهي الرحلة التي قام بها عام ١٣٣٨هـ من دمشق متجهاً نحو نجد لتسليم رسالة للملك عبدالعزيز آل سعود من قبل الملك فيصل بن الحسين والسيد محمد رشيد رضا، ولكنه لم يوفق في الوصول إلى نجد، فحوّل وجهته إلى المدينة المنورة لزيارة مسجد الرسول ﷺ.

وبعد الاطلاع على هذه الرحلة، يمكن استخلاص أهم ما جاء فيها، وذلك على النحو التالي:

١ - يصف السبب في عدم وصوله إلى نجد، وذلك بسبب العربان الذين قطعوا طريقه وسلبوا أمواله، ويصف لجوءه إلى قرية الحائط في

ضيافة حاكمها الشريف عبدالمطلب بن غالب، وتخوفه من القتل على يد النجديين.

٢ - يصف قرية الحائط الواقعة شمال المدينة المنورة، ويصف أهلها بالكرم والشجاعة وانتائمهم لحكم الأشراف.

٣ - يصف عزمه على زيارة المدينة المنورة وكيف تحقق له ذلك، ويثبت في صدر رحلته هذه قصيدة في مدح النبي ﷺ أنشأها يوم وصوله المدينة.

٤ - يصف دخوله المدينة، ثم زيارة حاكمها الشريف علي، ولي عهد الإمارة الهاشمية، ثم يصف دخوله الحرم النبوي، والخشوع الذي اعتراه والدموع التي انهمرت من عينيه وسلامه على المصطفى.

٥ - يصف الحالة العلمية في المدينة المنورة، والتأخر الذي تعيشه نتيجة للحرب ونقص الأموال والأنفس والثمرات. ويشير هنا إلى العلماء المجاورين بالحرم النبوي، وهم

غرباء عن المنطقة .

٦ - يذكر رسائله التي كتبها للإمام عبدالعزيز آل سعود، وبين فيها المصاعب التي حصلت له في الطريق، ويطلب من الإمام عبدالعزيز أن يرسل بعض الوعاظ والمرشدين للقرى البعيدة عن نجد لتعليم الناس الدين والعقيدة، أما رسالته إلى الإمام محمد رشيد رضا فقد تحدث فيها عن المشاكل التي واجهته في الطريق إلى نجد وزيارته للمدينة المنورة، كما يشير إلى أنه أمضى في المدينة المنورة ثلاثة أيام فقط ثم عاد منها إلى دمشق، واصفاً الطريق وصفاً إجمالاً.

ومن هذه الرحلة تتضح لنا حالة الفوضى السياسية التي هيمنت على الجزيرة العربية في نهاية الحرب العالمية والخلاف بين آل سعود والأشراف على حكم الحجاز، ومحاولة العلماء والوجهاء السعي بالصلح بين الفريقين، ومنهم صاحب هذه الرحلة .

٣ / ٩ محمد حسين هيكل: في منزل

الوحي:

وهو الأديب المصري الكاتب والصحفي والمؤرخ المعروف، قام برحلته إلى الحج سنة ١٩٣٦م مبتدئاً طريقه من السويس - وعبر البحر - إلى جدة .

ومن خلال تحليل هذه الرحلة نصل إلى الموضوعات التي تناوها، وهي على النحو التالي:

١ - يصف وصوله إلى جدة والجمرك المظلم الذي يفتش فيه الحجاج، وأمتعتهم، والفندق الذي استراحوا فيه ولم يعرف من جدة غيره كما يقول .

٢ - يذكر السبب في تسهيل حجته، وأنها دعوة من وزير المالية السعودي عبدالله السلیمان الذي عرفه في بيروت عام ١٩٣٥م، حيث ضمها مجلس فتاكر في كتاب هيكل: حياة محمد، ودعاه إلى زيارة الحجاز والحج على ضيافته، فرحب هيكل بهذه الدعوة التي استجاب لها .

ماليزيا هو وزوجته المسلمة أيضاً،
وتناقشا فيما يهم العالم الإسلامي،
وسبل وحدته واندماجه، والوقوف
ضد الحضارة الأوروبية المادية.

**في هذه الرحلة «صور من حياة البادية»
تتضح لنا حالة الفوضى السياسية التي
هيمنت على الجزيرة العربية في نهاية
الحرب العالمية**

٣ - يصف الطريق من جدة إلى
مكة، ويشير إلى المباني الحكومية في
الطريق وأنها بدائية ولا شيء فيها من
نظام العمران الحديث، ويذكر وسيلة
المواصلات آنذاك وهي السيارات.

٤ - يصف دخوله مكة في
منتصف الليل، وهو في إعياء ومشقة
من الطريق، لكنه فضل العمرة حين
وصوله، ويصف الكعبة ومشاعره
عندما رآها لأول مرة من خشوع
وخشية ورهبة، كما يصف الطواف
والسعي ومحلات الحلاقة بجانب
المسعى.

٥ - يصف لقاءه مع مضيفه وزير
المالية ووصفه لهذا الرجل الإنسان،
ويذكر هنا فكرة سياسة مميزة وهي
إنشاء عصبة الأمم الإسلامية، وأن
يكون مقرها مكة المكرمة.

٦ - يصف الخروج إلى عرفات
والوقوف بها والمشاعر المقدسة
والطريق بينها، ويقف عند معرفته
برجل أوروبي أسلم وحسن إسلامه
وحج إلى بيت الله الحرام ضمن حجاج

٧- يصف يوم عرفة والوقوف بها وخطبة نمرة، ويشبهها بأنها «تقليدية مثل خطب الجمعة في مصر» كما يقول، ويذكر المطر الذي نزل ذلك اليوم والريح القوية التي استمرت إلى وقت متأخر، ثم يصف إفاضته إلى مزدلفة بعد تحسن الأحوال الجوية، ثم إلى منى حيث رمى الجمرة الكبرى وأفاض إلى مكة لطواف الإفاضة.

٨- يصف المسعى وحالة الناس فيه، فمنهم الماشي على قدميه، ومنهم الراكب على جواد، ومنهم الممتطي جملة أو سيارته، وهكذا كان المسعى والسعي!! ويصف المقاهي والحوانيت على جانبي المسعى ويتألم لهذا الوضع السيء لقدسيتها المكان وحرمة.

٩- يصف جبل حراء، ويتمنى الوصول إلى الغار، ليتزوّد من ذلك بما ينفعه قبل رجعه إلى قومه، فإذا عاد إليهم عاد وفي يديه قبضة من أثر الرسول كما يقول.

١٠- يتحدث عن بعض العادات في مكة مثل عادة الولائم والطعام

وتقليدهم للغرب والمدنية، ويشير إلى رغبة الشباب الحجازي في نشر التعليم الذي يفتقدونه في الحجاز.

١١- يشير إلى صلاة الجمعة في الحرم وأثرها في نفسه والزحام الشديد، ويتألم لعدم سماع الخطبة لعدم وجود مكبر الصوت، ويشير إلى أثر صلاة الجماعة في نفس المسلم.

١٢- يصف خروجه من مكة إلى المدينة، وما شاهده من المتسولين في هذا الطريق، ويقترح على حكومة الحجاز أن تولي هذا الأمر كل عناية.

١٣- يصف وصوله إلى المدينة واستقبال الناس له وخروجه لزيارة المسجد النبوي، ويشير في هذا الصدد إلى زحمة الناس وتوافدهم على الروضة الشريفة وعند السلام على النبي ﷺ.

١٤- يتحدث عن سكان المدينة وقتلهم، والسبب في ذلك الحرب العالمية الأولى وتدمير الخط الحديدي الحجازي، ويصف أسواق المدينة وشوارعها وبعدها عن التحديث والتعليم، وقلة المدارس، كما يصف

جمال الطبيعة وكثرة البساتين .

١٥ - يتحدث عن المكتبات في المدينة، ويقف عند أهم مكتبة وهي مكتبة عارف حكمت، ويصفها ويصف أمينها ويشير إلى عدم فهرستها وتصنيفها، ويقترح أن تجمع كل المكتبات في دار واحدة، تنظم بشكل مكتبي متميز يستفيد منها كل من يزورها .

١٦ - يصف رحلة الوداع وزيارة المصطفى ﷺ وتوديعه، ويذكر الأدعية التي دعى بها .

ومن خلال هذه الموضوعات المتفرقة نتلمس واقع الحجاز في ذلك العام الذي تمت الحجة فيه، وهو عام ١٩٣٦م، أي بداية العهد السعودي بها، وهذا له دلالة التي تفيدنا إن شاء الله في المحاور التالية .

المحور الثاني:

أهم المشاكل والصعاب التي يعانيها الحجاج :
ومن خلال الدراسة والتحليل ،

اتضح أن المشكلات والصعاب التي يعانيها الحجاج منذ سفرهم إلى الديار المقدسة وحتى الانتهاء من مشاعر الحج والزيارة، تتمحور في مجموعة من المصاعب أشار إليها أصحاب هذه الرحلات .

ولعل الطريق وصعوبته والمواصلات وبدائها وسوءها من الصعاب الأكيدة، وبذلك فإن أدبيات البحث تتطلب منا المزيد، وهو ما سنتحدث عنه فيما يلي :

الأوبئة والأمراض:

أشارت مجموعة من كتب الرحلات التي بين أيدينا إلى هذه المشكلة، واعتبرتها إحدى أهم الصعوبات التي يواجهها الحجاج أثناء تواجدهم في منطقة الحجاز عامة ومكة والمشاعر المقدسة خاصة .

ففي عام ١٣١٩هـ أشار إبراهيم رفعت باشا إلى أنه حصل وباء كبير في مكة وأصيب به الحجاج وفتك بهم فتكاً ذريعاً، رغم وجود أطباء برفقة

المحمل المصري لعلاج المرضى لكن الوباء كان أكثر انتشاراً.

كما أشار البعض إلى أن من أسباب الأوبئة والأمراض أثناء الحج الحر الشديد ورياح السموم التي تؤدي إلى ضربة الشمس، وقد يتوفى على إثرها مجموعة من الحجاج، وقد حصل مثل ذلك في حج عام ١٣٤٨هـ حيث قدم بها الحجاج الهنود. توفي منهم حوالي (٢٥٠) مائتين وخمسين حاجاً، رغم أنه من فوائد الحر الشديد في مكة أنه يقتل الجراثيم المضرة والتي تنقل الأوبئة السارية.

والجدير بالذكر هنا، أنه تتخذ بعض التدابير الوقائية الصحية للتخفيف من الأمراض الوبائية التي تكثر في أشهر الحج، لذلك فإن الحاج المصري لا بد أن يتطعم (يحقن) ضد الكوليرا، والتيفوئيد، والجديري وهي من الأمراض المنتشرة آنذاك^(١).

يقال: إن الذي يفسد الهواء في مكة أيام الحج كثرة الساكنين بها من الحجاج، وقلة النظافة، وهذا يؤدي

إلى ظهور الأوبئة والأمراض مثل أمراض الصدر، والاحتقانات الدماغية، وأمراض الكبد والجهاز الهضمي والدوستاريا وخصوصاً بين الأطفال، كما يكثر مرض الجدري ويموت بسببه خلق كثير من الحجاج. كما أن الكوليرا قد ظهرت في مكة سنة ١٢٤٦هـ أما باقي الأمراض فلم يأت لها ذكر في أغلب كتب الرحلات لكنهم أشاروا إلى بعض الشكاوي المرضية التي يشتكي منها الحجاج مثل الصداع والإمساك والبرد والانفلونزا، وأمراض الأسنان والعيون وبعض الكسور نتيجة السقوط أو الصعود^(٢)، والتي يوليهما الأطباء في الحجاز والمصاحبين لوفود الحج كثير الاهتمام والعناية تشخيصاً وتطبيباً.

العربان واللصوص والتسول:

ولعل من أهم المشاكل والمصاعب

(١) الإمام محمد رشيد رضا: ١٠٣؛ محي الدين رضا: ١١١.

(٢) محمد لبيب البتنوني: ٦٣-٦٤.

التي يلاقيها الحجاج في الحجاز وأثناء أداء الحج أو السفر نحو المدينة، أو العودة منها، ما يصفه الرحالة الحجاج في كتبهم من تسلط العربان / رجال البادية على قوافل الحجيج ونهبها، وتعرض اللصوص لأخذ الرسوم المالية أو السرقة، ووجود الفقراء والمعوزين على طول الطريق للتسول وطلب الأرزاق، فهذا إبراهيم رفعت باشا يشير إلى واحدة من أهم الأحداث والمشكلات وقعت له وهو يقود المحمل المصري ويشرف على تحركاته في الحجاز، وهي تعرض قبائل «الرحلة» و «الردادة» و «الأحامدة» لركب المحمل أثناء عودته من المدينة ومطالبتهم بمبلغ «١٦٠» ريالاً رسوماً للمرور في بلادهم. وبعد مفاوضات دفع المحمل المصري هذا المبلغ المطلوب، وبعد قليل من المسير في تلك الديار باغتهم آخرون بوابل من الرصاص وطلبوا المحمل المصري بالمزيد من الريالات واتضح أنها قبيلة أخرى، وهكذا كان اللصوص من

العربان يتخفون في الطرقات ليسلبوا أموال الحجاج بحجة الرسوم للمرور في ديارهم، وقد أدى ذلك إلى عودة المحمل إلى المدينة المنورة.

كما يشير رفعت باشا أنه في السابع عشر من شهر ذي القعدة ١٣٢١هـ وقبل الوصول إلى مكة سطا العربان على قافلة في بجرة وقتلوا من رجالها ونسائها، وجرح الكثير، وسلبوا المتاع من حجاج مصر والسودان.

وفي مكان آخر، يشير رفعت باشا أن بعض العربان حاولوا في مكة أن يسرقوا بعض أمتعة المعسكر الذي أقام فيه المحمل المصري، ولكن اللصوص لم يتمكنوا من تحقيق آمالهم.

وللتأكيد على ذلك يورد بياناً بأسماء الحجاج المصريين المعتدى عليهم في ١٧ ذي القعدة ١٣٢١هـ^(١). ويصف أحد كتاب الرحلات

(١) إبراهيم رفعت باشا: ٧٠ - ٧٤، ٧٨ - ٨١، ٢١٠ - ٢١١.

هذه المشاكل التي يعانها الحجاج أثناء موسم الحج بقوله: إن الحجاج في المحمل التركي يتعرضون لفتك العربان ونهبهم وسلبهم في أيام الحج مما يجعل الفوضى والاضطراب تسود الحجاج. وكان أشبه بنار موقدة، ولذلك فإن الحاج يودع أهله ويوصيهم، لاعتقاده أنه لن يعود إلى أهله ودياره سالماً فهو إذا نجا من العربان لم يثق أنه سينجو من طغيان الوباء والأمراض.

كان ذلك على عهد الأشراف، أما العهد السعودي فإن الأمن وارف وتم القضاء على اللصوص والعربان الذين يقطعون الطريق. ورغم ذلك فإن الفقر والبؤس والتسول أمور لا بد منها في الحجاز في الطريق بين مكة والمدينة، ولكن هؤلاء لم يلجأوا إلى السرقة واللصوصية؛ لأنهم خافوا من أحكام الشرع التي طبقها ابن سعود في الحجاز، وعلى كل من تسول له نفسه العبث بالأمن^(١).

كما أشار إلى هذه المشكلة الحاج الإمام محمد رشيد رضا الذي نقل لنا

صورة معبرة عن الحجاج الأفارقة «الذكور»، وأنهم يسرون بأقدامهم أثناء السفر من جدة إلى مكة ولا يخشون لصوصاً ولا قطاع طرق، لأنهم لا يحملون شيئاً يسرق أو يخشون عليه. كما يشير إلى العربان وكثرتهم وقدرتهم على السرقة، ولما جاء الحكم السعودي استبدلوا ذلك بالتسول.

ولكنه أشار إلى أن هذا العام - يعني السنة التي حج فيها عام ١٣٣٤هـ ١٩١٦م - كان الطريق إلى مكة آمناً مطمئناً ولم يحدث به اعتداءات وأن مخافر الشرطة على طول الطريق حفاظاً على الأمن. ويثني على قبائل هذيل وأبنائها الذين لا يعتدون على الحجاج ولا يسرقون وإن ماتوا جوعاً، أما عرب الشمال فهم اللصوص وقطاع الطرق^(٢).

ولم يكن هذا العنت والتعب من

(١) محي الدين رضا: ١٢-١٨؛ وأنظر المازني: ٥٠-٥١؛ ومحمد صادق باشا: ١١٥-١١٦.
(٢) الإمام محمد رشيد رضا: ١٢٢-١٢٤، ٢٠٦.

العربان واللصوص يلاقيه فقط الحجاج المصريون أو الشاميون، وإنما عانى منه - كذلك - حجاج اليمن، وهذا جغمان يحدثنا عن معاناته مع العربان وقطاع الطرق الذين أخذوهم وهم في صلاة الفجر بقريّة مستورة على الطريق إلى المدينة^(١)، وهكذا يتضح أن رحلة الحج في ذلك العهد محفوفة بالمخاطر، من العربان واللصوص، والمتسولين.

مشكلة الماء في الحجاز

ومن المشكلات والمصاعب التي يعانها الحجاج أثناء تأدية هذه الشعيرة المقدسة قلة الماء وغلاء سعره، وكونه مثلاً بارداً أو قذراً ومتسخاً، وعذوبته أو ملوحته، وكيفية جلبه والتزود به طوال طريق الحج سواء المصري أو الشامي أو اليمني. وفي هذا الصدد أشار أحد الرحالة / الحجاج الذين دونوا رحلات حجهم أن المياه في مكة نوعين:

١- نوع صالح للشرب نوعاً ما يمكن الوصول إليه من خلال حفر الآبار، والعيون، والمخزون في الوهاد والحفر وصهاريج المنازل. وهذا النوع رخيص الثمن، ويشير هنا إلى أن برّ زمزم تدخل في هذا النوع من المياه.

٢- والنوع الآخر الماء العذب، وهو مستخرج من البحر بواسطة التبخير (الكنداسة)، وثن الصفيحة في موسم الحج قرشين سعوديين، أو الماء المستخرج من العيون البعيدة، وهنا يذكر - مثلاً على هذا النوع من الماء - فيقول: إنها عين زبيدة التي وصفها بأنها تسير في قنوات تسقي مكة، ولكنه يذكر بغلاء قيمة وأسعار المياه في جدة ومكة، وهذا ما كانت تسعى للحد منه حكومة الشريف آنذاك ثم الحكومة السعودية فيما بعد.

كما يشير هذا الحاج / الرحالة / المؤرخ لرحلته أن هناك نوعاً جديداً من المواقع التي تكثر فيها المياه

(١) عبدالله الحبشي: الرحالة اليمنيون: رحلة جغمان: ١٧٨.

ويستفيد منها الحجاج وهي «البازانات» وهي: خزانات يتجمع فيها الماء قبل موسم الحج بفترة طويلة، وأهم هذه البازانات - كما يقول - بازان أم عباس الذي بناه الملك فؤاد الأول، وكان مبرة لجميع الحجاج وخاصة الحجاج المصريين.

ورغم ذلك، فإن الماء قد ينقطع ويقل، ولذلك كانت من أهم المشاكل أن يزيد سعر الماء فيضطر الحاج أن يشتره تحت ضغط الاحتياج الضروري، وقد يكون الحمالون هم المسؤولون عن رفع أسعاره أثناء موسم الحج لاسيما إذا كانت خيمة الحاج بعيدة^(١).

وفي هذا السياق، يذكر إبراهيم باشا عين زبيدة، ودورها في التخفيف من حدة مشكلة المياه في الحجاز وفي مكة خاصة، ويعتبرها المصدر الأول للمياه حيث تسير في قنوات من مصدرها إلى عرفة وبقيّة المشاعر وحتى مكة، ومن هذه القنوات يستقي الحاج ويشرب الأهالي ويملؤون

منها الصهاريج.

ويشير كذلك إلى أن هذه المياه لا تكفي للحجيج نساءً ورجالاً وأطفالاً، ولا حتى لوسائل نقلهم من الدواب والحيوانات التي تحتاج إلى الماء، فيكثر الزحام وتتسخ المياه حتى لا تعد صالحة لاستخدام الآدمي من شرب وغيره.

وبعض الحجاج يتوضأ من هذه الأحواض والمجاري المائية، بل ويغتسلون، ويغسلون ملابسهم مما يسبب الأوبئة والأمراض الخطيرة في الحج.

ولعل أهم إشارة هنا أنه لا يوجد بيوت للخلاء يقضي فيها الحجاج حاجاتهم، فيلجأون إلى الأماكن الفارغة خارج الخيام والبيوت ويعملون ما يسهل الله به، فتكثر الروائح الكريهة وتتصاعد حتى تزكم الأنوف وتفسد المياه المجاورة.

(١) عباس متولي حمادة: ٢٨-٢٩، ٣٣-٧٧.

الحكم السعودي تنبه لقيمة وجود الماء في المشاعر المقدسة وعلى طول طريق الحج فحفر الآبار الارتوازية، واستخدم الآلات الحديثة لاستخراج الماء من جوف الأرض، فزاد سبيل الماء في مكة والمشاعر المقدسة. كما أسست الحكومة السعودية معامل حديثة لإنتاج الثلج الذي يبرد على الحجاج أثناء موسم الحج الحار الذي يزعمهم^(٢).

وبذلك نتيقن أن الماء من ضروريات الحاج التي يسعى لتوفيرها وتنوع مصادرها والأخذ منها على قدر حاجته، لا سيما إذا كان من بلاد تكثر فيها المياه، ومنتدفة من الأنهار وتحلية البحار والآبار وغيرها.

وهكذا يتضح من هذا المحور أن الحجاج يعيشون أياماً صعبة منذ أن

(١) إبراهيم رفعت باشا: ٢٠٨ - ٢٠٩، و١: ٢، و٢: ٢، و٥، وأنظر محمد صادق باشا: ١٠٨.
(٢) شكيب أرسلان: ١٩ - ٢٠، وأنظر إبراهيم عبدالقادر المازني، رحلة الحجاج: ٤٠.

وقلة الماء في مكة والمشاعر المقدسة يقابلها ندرة وقلة متناهية في ينبع، وذلك لعدم نزول الأمطار، ولهذا يزيد سعر القربة من خمسة قروش حتى ستة، وذلك لأن الحمالين يحملون الماء على متون الإبل من مسيرة عشرة ساعات ذهاباً وإياباً^(١).

ومن المشكلات التي تواجه الحاج في هذا المجال المائي، أن الآبار تجف ويقل ماؤها، بل وتنشف ويروح ضحية ذلك كثير من الحجاج ظمأً، ثم موت ووفاة. ولذلك عندما جاء

يقرروا سفرهم لأداء هذه الشعيرة المقدسة وحتى يعودوا إلى ديارهم، وذلك من خلال معاناتهم عبر الطرق التي يعبرونها سواء من بلادهم إلى الحجاز أو من جدة إلى مكة والمشاعر المقدسة والمدينة المنورة.

كما وقفنا على أهم الصعاب والمشكلات التي يعانها الحجاج وتواجههم أثناء تأدية فريضة الحج ومنها الأمراض والأوبئة، وقطاع الطرق واللصوص من العربان (بدو الحجاز) والمستولين على الطرق الداخلية بين مكة المكرمة والمدينة المنورة. ومنها كذلك مشكلة الماء العذب الذي ينقص ويقل لدرجة تزعج كثيراً من الحجاج. وهذا فضلاً عن بعض المشكلات المتعلقة بالسفن والبواخر التي تنقل الحجاج أو المطوفين الذين لا يأبهون بمتطلبات الحاج الروحية والنفسية وغير ذلك. وبهذا نكون قد ناقشنا أهم وأبرز المصاعب والمشكلات التي واجهت أصحاب الرحلات التي درسناها.

المحور الثالث:

الواقع المعيشي لمناطق الحج

جدة - مكة - المدينة

تعرض كثير من كتاب الرحلات الذين تداخلنا مع كتبهم - دراسةً وتحليلاً - إلى وصف الأحوال الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والدينية، والثقافية والأمنية والطبية التي شاهدوا ووقفوا عليها في منطقة الحجاز، وخاصة مناطق الحج فيها، مكة والمدينة وجدة. وبينوا لنا كثيراً من الصور التي تعطينا معرفة عن الواقع المعيشي في هذه الأماكن وتجعل القارئ أكثر إحاطة وإلماماً بالفترة الزمنية التي تمت فيها رحلة الحج، وما صادفه الحاج / الرحالة من وقائع وملاحظات، وما قدمه من ملاحظات واقتراحات.

وفيما يلي يتمحور حديثنا عن تلك الأحوال والمظاهر في أبعادها المتعددة.

أولاً: أبرز المظاهر الاجتماعية / البعد الاجتماعي:

للهولة الأولى يبدو تعمق الرحالة / الحجاج في النسيج الاجتماعي لمناطق الحج، ويبدو ذلك جلياً من خلال رصد الموثق للأحوال الاجتماعية التي عايشوها أثناء رحلة الحج المباركة. ولعل أبرز المظاهر الاجتماعية التي وقفوا عليها ما يلي:

١/ ما يتعلق بالسكان من مواطنين وحجاج:

تشير بعض كتب الرحلات إلى أن السكان في مناطق الحج - جدة - مكة والمدينة - خليط من أجناس مختلفة، فيهم المواطن الأصلي الحجازي الصميم، ويطلق عليه المكّي، الحجازي، وفيهم الأعراب من أهل البادية المحيطة بهذه المناطق، وفيهم الحضارم من جنوب الجزيرة العربية، وفيهم من أهل نجد، وفيهم العرب المصريون والشوام والمغاربة، وفيهم

الترك والهنود والأفغان والجاوة (من أندونيسيا) والبخارية من بخارة^(١).

وقد ذكر أحد الرحالة / الحجاج في مذكراته أن أعداد السكان في مكة المكرمة عام ١٩٠٧م / ١٣٢٥هـ كما ورد في الإحصائيات العثمانية (١٥٠٠٠٠) مائة وخمسون ألف نسمة موزعة على النحو التالي:

٥٠٠٠٠ (خمسون ألفاً) من أهالي مكة.
١٠٠٠٠ (عشرة آلاف) سليمان وأفغان.
١٢٠٠٠ (اثنا عشر ألفاً) من الهنود.
٢٥٠٠٠ (خمسة وعشرون ألفاً) من البدو، واليمن والحضارم.
٥٠٠٠ (خمسة آلاف) من بلاد الشام.
٥٠٠٠ (خمسة آلاف) من المغاربة.

(١) إبراهيم رفعت باشا، مرآة الحرمين ١: ٢٠١، والحاج عبدالعزيز صبري بك: تذكارات الحجاز: ٢٠٥.

٨٠٠٠ (ثمانية آلاف) من الأتراك والمصريين وغيرهم. ١٥٠٠٠ (خمسة عشر ألفاً) من جاوة^(١).

ولعل السبب في هذا الخليط المركب من الأجناس المختلفة هو ما يفد من الحجاج إلى الأراضي المقدسة لأداء فريضة الحج، ثم البقاء والاستيطان في هذه المناطق؛ طلباً للرزق أو مجاورة الحرمين الشريفين. لقد أدى هذا التمازج بين الأجناس المختلفة إلى بروز قيم اجتماعية جديدة، أثرت على المسكن والملبس واللغة، بحيث أصبح كل ذلك صورةً مما يجده الإنسان في معظم البلاد العربية والإسلامية.

وما يزيد في هذا التمازج والاختلاط، الأعداد الكبيرة من الحجاج التي تفد في كل عام إلى مكة المكرمة، وقد بلغ عددهم في عام ١٣٥٤هـ (١٠٠٠٠٠٠) ألف حاج من أقطار العالم العربي والإسلامي، وفيهم قبائل همجية لا نظام لها،

مطبوعة على الفوضى، ومتميزين بالقدارة في المظهر والملبس^(٢).

وتبعاً لذلك، تحددت أنواع المساكن والعمارة الملائمة لمنطقة الحجاز وأجوائها المناخية التي يغلب عليها الحرارة طوال أشهر العام، ولذلك نجد البيوت والعمارة الحجازية تمتاز بالعلو والارتفاع ما بين دورين إلى ثلاث أدوار، وتوزع الغرف والحجرات عليها، فيخصص الدور الأعلى للحجر الاستقبال، وفي الدور الأسفل غرف المائدة والمطبخ.

ولكل بيت بوابة تفتح وتغلق ولها باب صغير يسمى خووخه، وله كذلك فناء متوسط وسلم للصعود للأدوار العليا، وتتميز بأن درجاتها مرتفعة جداً وبعضها أعلى من بعض وأضيق وتشكل خطراً أثناء النزول، وقد يكون للبيت الواحد أكثر من سلم، كما أن له نوافذ تسمى

(١) أنظر محمد لبيب البتوني، الرحلة الحجازية:

٤١-٤٢.

(٢) عباس متولي حمادة، مشاهداتي في الحجاز: ٦٠.

بالمشربيات، وفي الحملة فإن المساكن في الحجاز صغيرة وجميلة طرازها شرقي عتيق مؤثث بالأثاث الفاخر والذوق السليم^(١).

وصفات ثابتة، وليس هذا غريب لأنهم من السلالة الطاهرة من الأنصار والمهاجرة. كما يصف السكان في جدة بعادات الحلم والأناة لا يستفزون ولا يغضبون^(٢).

١/٢ ما يتعلق بالعبادات والأخلاق والتقاليد

تتحدث الكتب التي بين أيدينا بشيء من التفصيل عن العادات والتقاليد الحجازية، وأخلاق الأهالي، فيذكرون من ذلك الكرم، فالحجازيون كرام يبذلون فوق مقدورهم، وكان كبار الشخصيات الحجازية أمثال محمد نصيف وإمام الحرم الشيخ أبو السمح يستقبلون الضيوف على موائدهم العامرة طوال أيام الحج، وكان أهل المدينة المنورة أهل وداعة وكرم نفس وشجاعة أدبية ويمتازون بالعلم والتواضع والصبر والجلد، كما يتصفون بالهدوء والسكينة والرزانة وسمو النفس وحسن الطباع في غير تصنع أو ادعاء أو تظاهر، وإنما كل ذلك غريزة

ومن العادات الحسنة لدى أهل الحجاز - وخصوصاً الأشراف منهم - إرسال الأبناء إلى البادية حول مدينة الطائف لتعليم الفروسية والبدواة الحازمة، واللغة الفصيحة. كما يتصفون بالتدين الشديد حيث تتضح مظاهره من كثرة ازدحام المصلين في مساجد جدة، وكذلك إقامة شرع الله^(٣).

ومع كل هذه العادات الحميدة،

(١) عبدالله محمد الحبشي: الرحالة اليمينيون، رحلة جغمان: ٤٢ - ٤٥، وإبراهيم عبدالقادر المازني، رحلة الحجاز: ٤٢ - ٤٥، وعبدالله محمد الحبشي: الرحالة اليمينيون، رحلة يحيى بن المطهر، بلوغ المرام: ١١٨.
(٢) أنظر محي الدين رضا، رحلتي إلى الحجاز: ١٠٨، وعباس متولي حمادة: ١٢٠، وإبراهيم رفعت باشا: ٢٠٣.
(٣) أنظر عباس متولي حمادة: ٢٧، ومحي الدين رضا: ١١٤.

والصفات الخلقية المميزة، نجد لدى الحجازيين بعض العادات المستقبحة / السيئة، كشرب التتن / الدخان والشيشة، وربما تصل بهم إلى شرب المسكر من خمر وغيرها، وكذلك بعض العادات والسلوكيات المشينة كارتكاب الفواحش المخالفة للدين كالزنا واللواط والقتل والسرقعة وقطع الطريق.

وهناك بعض العادات والأخلاق المرفوضة مثل التسول والذي لاحظته معظم الحجاج الرحالة / في مكة وجدة وعلى طول الطريق إلى المدينة، حيث يشاهد المسافر جماعات كثيرة من الرجال والنساء والأطفال والشباب يقفون صفوفاً يتسولون الحجاج، وفيهم من الفاقة والمسكنة والعري ما يدفعهم لذلك، وهؤلاء من سلالة البدو الذين كانوا قبل ذلك يقطعون الطريق ويأخذون الرسوم من الحجاج فأصبحوا سائلين متسولين، ولكن في الفترات التاريخية التي حكم فيها ابن سعود قضى على

هذه الظاهرة^(١).

ولعل أغرب ما قيل في مسألة العادات والتقاليد، وما نقله الحاج اليمني يحيى ابن المطهر يصف فيه الشريف غالب عام ١٢١١هـ بأنه يحمل الغليون ولا يخشى من استخدام التتن، وهو مجال متاح للأشراف ولغيرهم من الطبقات الاجتماعية والمجتمع الحجازي، كما يصف الشريف غالب بالظلم والجبروت والإسراع في إزهاق النفوس البريئة^(٢).

أضف إلى ذلك عادة الاستماع إلى الطرب والغناء، وقضاء الأوقات في اللعب والتسلية وخاصة أيام الحج، حيث يحيون أيام منى بالألعاب النارية التي أبهرت أحد الحجاج اليمنيين وأعجب بها، ووصفها وصفاً دقيقاً^(٣).

(١) عباس متولي: ٤٥، وإبراهيم عبدالقادر المازني: ٤٥.

(٢) أنظر الرحالة اليمينيون، رحلة يحيى بن المطهر: ١١١.

(٣) المصدر نفسه: ١١٣، وأنظر إبراهيم رفعت باشا: ٢٠٤، وإبراهيم المازني: ٢٦-٣١.

ومن عاداتهم أيضاً، الأناقة في المأكل والمشرب، واللباس ذو الألوان الزاهية، وتقديم الشاي والقهوة للضيف في أي وقت، ومن عادات الشباب أيضاً تكحيل العين وتظفير شعر الرأس وشدة المراس على ركوب الخيل والفروسية، كما يوصف أهل الحجاز بأنهم شعب مترف، وخاصة على مستوى الشخصيات الكبيرة حيث نجد الماء المعدني وأشهى المأكولات ونظام الطبخ الراقى، وطريقة تنظيم الموائد على الأسلوب الغربي والشرقي، وتوفر الفواكه الطازجة ورخص أسعارها وأثمانها^(١).

هذا على مستوى النصف الأول من المجتمع (الرجال)، أما النصف الآخر فهم النساء اللواتي وصفهن أحد الرحالة الحجاج بأنهن يتميزن على كل النساء في الأقطار الإسلامية، «متمسكة بدينها، صائنة لعفافها وشرفها، حافظة لأنوثتها، لم تنغمس في تيار المدنية الجارف الفاتك

بالأعراض والمضيغ للآداب، تلبس الثياب الفضفاضة الواسعة التي لا تحيط بأعضائها ولا يظهر تفاصيل جسمها، تغطي وجهها بغطاء كثيف له فتحتين أمام العينين وبعضها منسوج لإتاحة الرؤية الجيدة للمرأة، ولا يمكن للخادم الدخول عليهن وإنما يكلمهن من وراء حجاب».

وفي هذا السياق تذكر بعض الكتب التي بين أيدينا أن المرأة في الحجاز تشرب النارجيلة / الشيشة، وتقصر في خدمة منزل زوجها، متكلات على الخدم، ويثقلن كواهل الأزواج بالطلبات الباهظة.

كما نجد في هذا السياق كثيراً من عادات الزواج والمآتم، واحتفالات المجتمع بحفظ أبنائهم للقرآن الكريم. ولكن الجميل في الأمر أن أحد الكتاب أشار إلى أزمة الزواج في المجتمع الحجازي - وخاصةً المكي - وأكد على أنه تابع المسألة فوجدتها

(١) محي الدين رضا: ١٧، وإبراهيم رفعت باشا: ٢٠٤.

تشكل أزمة كبيرة خاصة لدى الطبقات الفقيرة والمتوسطة، ويعيد السبب في ذلك إلى المغالاة في المهور، وهذا لا يتفق مع الحالة المالية وما هم فيه من بؤس وشقاء وفاقه^(١).

١/٣ ما يتعلق باللغة:

أشرنا سابقاً أن من عادة الأشراف إرسال أبنائهم إلى البادية لاكتساب المهارات اللغوية الفصيحة، والتدريب على الرجولة والفروسية والشجاعة وغيرها. وما ذلك إلا لما صاحب المجتمع المكي من تخالط الأجناس والشعوب فضعفت على أثر ذلك اللغة الفصيحة وحل محلها كلام شعبي دارج لا هو بالفصحى ولا هو بالعربي، بل هو خليط من لغات أخرى غير العربية: فارسية وتركية وغيرها. فأصبحت اللغة في مكة ومناطق الحج الأخرى غير مفهومة، ألفاظ عربية غير فصيحة، لهجة حجازية دارجة. وهذه سلبية تحسب

على أهل الحجاز، ومكة خاصة. ولكن الميزة في هذا الوضع أن المكيين أصبحوا يعرفون مجموعة من اللغات غير العربية مثل الفارسية، والجاوية، والتركية والهندية، ولا يملك هذه الخاصية سوى المطوفين لاحتكاكهم المباشر مع هذه اللغة. أما أهل البادية فلغتهم العربية الفصحى لعدم اختلاطهم، ولهم لهجات خاصة بكل قبيلة يصعب على الحاج التواصل معها^(٢).

ثانياً: أبرز المظاهر الاقتصادية / البعد الاقتصادي:

يعتبر الحج وأيامه التي قد تمتد إلى شهرين أو ثلاثة أشهر أحد المواسم الاقتصادية الحولية التي تمر بها منطقة الحجاز عامة، ومناطق الحج (جدة - مكة - المدينة) بشكل خاص.

(١) عباس متولي: ٢٧، ٦٣ - ٦٤، وإبراهيم رفعت باشا: ٢٠٥.

(٢) محمد لبيب البتنوني: الرحلة الحجازية: ٤٢ - ٤٤، وعباس متولي حمادة: ٤٨.

والذي ينتظره أهالي الحجاز كل عام يديرون فيه شؤونهم الاقتصادية ويكسبون من ورائه مالاً وفيراً، يكفهم طوال عامهم حتى يأتي الموسم الجديد.

ولذلك يشير كثير من أصحاب الرحلات التي بين أيدينا إلى أن مكة تتحول إلى أسواق متكاملة ومتعددة أثناء موسم الحج، حيث يرد إليها الكثير من المنتجات الصناعية والتجارية والزراعية، مثل العطور والسبح والسجاجيد والمنسوجات الحريرية والقطنية. والخضروات والفواكه والصناعات الفضية والذهبية والأواني النحاسية والخردوات والتي يشتريها الحجاج كهدايا يعودون بها لأسرهم وأهاليهم.

أما القيمون^(١) على التجارة في الحجاز في عهد الأشراف فقد كان الأغراب والأجانب وخاصة الهنود الذين سكنوها واستوطنوها. أما الأهالي فإنهم يكتفون بالتجارة من خلال الطوافة التي تدر عليهم دخلاً

يسترزقون منه طوال العام. ولذلك فإن الحجازيين لا يستفيدون من العوائد المالية التي يجنيها التجار الأجانب^(٢).

وتعتمد التجارة الحجازية على أنواع متعددة من حدادة، وصناعة، وتداول العملات بيعاً وشراءً، والطوافة وتأجير المنازل، وأخيراً تجارة الرقيق.

هذا في مكة المكرمة، أما الحالة الاقتصادية في المدينة المنورة فهي ليست بعيدة عما في مكة، فوارداتها خارجية من جاوه والشام والهند مثل الأقمشة القطنية والصوفية والحريرية والسبح والليف الأبيض والحناء والسجاد والبسط. لكن أهم تجارة في المدينة المنورة هي تجارة التمور، لكثرة النخيل والبساتين المنتجة له والتي يقال: إنها تنتج أكثر من سبعين صنفاً من التمور.

ولا تقوم الأسواق في المدينة

(١) إبراهيم رفعت باشا: ٢٠٦-٢٠٧.

(٢) عباس متولي: ٤٨، ومحمد ليب البتوني: ٦٠.

بشكل كبير إلا أيام الحج والموسم
الرجبي حيث يجد الحاج والزائر جميع
متطلباته ابتداء من الباب المصري إلى
الحرم عبر شارع ضيق طوله حوالي
٥٠٠ متر^(١).

وعلى أية حال، فقد كانت الحالة
الاقتصادية في الحجاز، وفي مناطق
الحج خاصة تسير بشكل جديد، لأن
ما يصرفه الحجاج فترة بقائهم في
الحجاز - وفي مكة خصوصاً - يصل
إلى مليون جنيه تقريباً خلال فترة
وجيزة تقدر بشهر واحد، وذلك في
أجرة المساكن والمطوفين والزمزمة
وشراء بعض الهدايا، ولذلك فإن
بعض سكان مكة ينظرون إلى الحجاج
وإلى فترة الحج أنها مصدر رزقهم ولا
بد من الاستفادة منهم قدر
الإمكان^(٢).

أضف إلى ذلك أن الأسعار
رخيصة والأثمان زهيدة مما يتيح
للحجاج أن يشتروا ما يريدون
ويتعاملوا اقتصادياً بكل ارتياح،
والطعام متوفر وأسعاره جيدة.

ثالثاً: أبرز المظاهر السياسية /
البعد السياسي:

ومن خلال تحليلنا ودراستنا
لكتب الرحلات الشرقية إلى الحج،
لفت نظري أن أصحاب هذه
الرحلات قد عايشوا ثلاث فترات
سياسية في الحجاز وهي كما يلي:
الفترة العثمانية: وهي فترة
الشرافة بمكة إلى ما قبل حكم
الشريف حسين.
الفترة الهاشمية: فترة الشريف
حسين بن علي.

الفترة السعودية: فترة الملك
عبدالعزیز وبداية الحكم السعودي.
ومن خلال هذه الفترات
السياسية ومجمل فعاليتها في الحجاز
عامة وتجاه الحجاج ومناطق الحج
خاصة، كانوا يكتبون ويشيرون إلى
بعض القضايا والأحداث السياسية.

فثلاً: محمد صادق باشا - وهو
من أوائل الرحالة الحجاج المشاركة /

(١) محمد البتوني: ٢٥٤.

(٢) المصدر نفسه: ٦٢.

المصريين، والذي زار الحجاز أربع مرات بمهام مختلفة، فرة مستكشفاً للطريق بين الوجه وينبع والمدينة المنورة، ومرة للعمرة، وثالث مرة حاجاً وأميناً للعدة. وأخيراً مسؤولاً عن تسليم صدقة القمح لأهالي مكة والمدينة، وكانت على النحو التالي:

الأولى عام ١٢٧٧هـ / ١٨٦٠م وألحق بها بعد عام واحد رحلة أخرى عام ١٢٧٨هـ / ١٨٦١م، والثانية عام ١٢٩٧هـ / ١٨٨٠م، والثالثة عام ١٣٠٢هـ / ١٨٨٤م، والرابعة عام ١٣٠٣هـ / ١٨٨٥م، وفي كل هذه الرحلات نجد هذا الكاتب يصف منطقة الحجاز ويحددها سياسياً، بأنها ولاية تقع بين نجد وتهامة، ومساحتها، حوالي (١١٩٣٥١٧) كيلومتراً مربعاً. ومجموع سكانها ما بين (٧٠٠٠٠٠٠ و ٨٠٠٠٠٠٠) جميعهم من المسلمين التابعين للدولة العثمانية، وأن حدودها تمتد من عسير جنوباً إلى سوريا شمالاً، ومن البحر الأحمر غرباً إلى صحراء نجد شرقاً^(١).

ولقد دانت هذه المنطقة للدولة العثمانية عام ٩٢٣هـ ١٥١٧م. بعد دخول السلطان سليم الأول مصر وأطاعه شريف مكة ووالي الحجاز آنذاك، وأعلن خضوعه للحكم العثماني.

وبدأ الأمراء والحكام الأشراف يتناوبون على حكومة الحجاز ابتداء من أسرة أبوالبركات، ثم أسرة بنوزيد، ثم أخيراً في بني عون الذين ينتسب إليهم الشريف حسين بن علي حاكم الحجاز التابع للدولة العثمانية عام ١٩٠٨م / ١٣٢٦هـ، والمستقل عنها بعد عام ١٩١٦م / ١٣٣٤هـ^(٢). ومكة هي عاصمة الحجاز وفيها محل حكومة الشريف وتنقسم إلى قسمين: إداري، ومالي عسكري.

(١) محمد صادق باشا: الرحلات الحجازية، إعداد وتحرير، محمد همام فكري ط ١، بدر للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٩م: ٢٠١، ٣٣١.

(٢) أنظر: نضال داود المومني: الشريف الحسين بن علي والخلافة، لجنة تاريخ الأردن، مطابع الصفدي، عمان، ١٩٩٦م: ١٥ - ٧٥، وأنظر: محمد لبيب البتنوني: ٧٣ - ٨١.

فأما الإداري ففي يد الشريف أمير مكة ويسمونه سيد الجميع، وأما المالي العسكري ففي يد الوالي الذي يكون تركيا / عثمانيًا. وعليه فالشريف يحكم في القضايا الهامة .

الحجاز بأن الحاكم آنذاك هو الشريف عون الرفيق الذي كان يجلس للحكم في دار الإمارة من الساعة الخامسة نهاراً قبيل العصر وتعرض عليه المسائل العامة، أما صباح الجمعة فإنه يستقبل الوالي وكبار الموظفين والأشراف وعلية المجتمع في مكة، وذلك في دار الإمارة أيضاً^(١).

ورغم ما يبدو من قيام الشريف عون الرفيق بدوره في الحكم إلا أنه أخذ عليه الشدة والجبروت والظلم والطغيان، حتى كتب عنه الكتاب في الصحف مثل المقتطف والمؤيد والوطن، واشتكى منه حجاج جاوه والهند والمصريون والسودانيون، وكل هذا ناتج عن الواقع السياسي الذي تعيشه مناطق الحج في الحجاز نتيجة للسياسة التي يمارسها الشريف عون الرفيق .

ولعل هذه السياسة التي مارسها الشريف عون الرفيق هي التي تصلح

(١) محمد لبيب البتوني: ٤٨ - ٤٩، وأنظر إبراهيم رفعت باشا: ١: ٢٠٤.

وأما إبراهيم رفعت باشا الذي زار الحجاز أربع مرات ما بين سنة ١٣١٨هـ / ١٩٠١م، وسنة ١٣٢٥هـ / ١٩٠٨م فيصف الأحوال السياسية في

مع حال العربان الأشرار الذين لا ترغمهم إلا القوة ولا يعوقهم إلا البطش بهم، ولكن المطلوب هو أن يضم إلى القوة العدالة لكبح الأشرار عن شرورهم، وتأليف قلوب الناس والحجاج لحاكمهم وشريفهم^(١).

والبارز في الحالة السياسية أيام حكم الأشراف قبل الشريف حسين ضعف الدولة وانعدام الأمن وتسلط العربان، وما يقابله الحجاج من مصاعب أثناء السفر من مكة إلى المدينة والخوف على أنفسهم وأموالهم.

وفي ظل هذه الظروف كانت هناك فترات ناصعة لحكم الأشراف أو الولاة العثمانيين، فهذا الرحالة جغمان يصف الوالي أحمد باشا والي الحجاز بأنه متواضع، يخرج للجلوس في المسعى من الصباح إلى الظهر، ويفصل بين الخصومات وينتقم من أهل الريب من العربان^(٢).

وكذلك ما رواه أحد الحجاج من أن الشريف غالب قبض على مجموعة

من المتهمين بالسرقة أيام الحج فضبطهم بالحديد وعند وصوله مكة أمر بضرب أعناقهم، وصلبوا أمام داره يمر بهم الخاصة والعامة للعبارة والاعتاظ والإرهاب^(٣).

وتشير إحدى الرحلات الشرقية في عام ١٩٠٤م / ١٣٢٢هـ أنه حصلت فتنة في المدينة المنورة بين أحد وجهاء المدينة ومحافظها وصلت لدرجة التمرد والحرب، فأرسلت الحكومة العثمانية لجنة للتحقيق وقررت - بعد دراسة المشكلة - إدانة المتمردين ورئيسهم السيد عبدالقادر بين عبيدالله الكردي، وحكموا عليهم بالنفي إلى الطائف، وأما الرئيس فقد سافر مع الحمل الشامى إلى بيروت، وبعد سنتين أفرج عن المنفيين وعادوا إلى المدينة^(٤).

ولما وصل الحكم والشرافة في

(١) إبراهيم رفعت باشا ١: ٦٤، ٧٩-٨٥.

(٢) عبدالله محمد الحشبي، الرحالة اليمينيون، رحلة جغمان: ١٦٦-١٦٧.

(٣) المصدر نفسه، رحلة يحيى بن المطهر: ١١١.

(٤) إبراهيم رفعت باشا ١٢: ١٠٥-١٠٦.

الحجاز إلى الشريف حسين بن علي وبويع أميراً لمكة عام ١٣٢٧هـ بدأت الأحوال السياسية تتغير إلى الأفضل فبعد أن كانت أيام أسلافه فوضى واضطرابات ونهب وسلب وكان الحاج لا يأمن على نفسه وأمواله، تغيرت الأحوال فقام الأمير الحسين بن علي بالأمر خير قيام وبهمة لا تعرف الملل، وضرب على أيدي القبائل والعربان، وبدأ في تشكيل حكومته السياسية على الصورة المعاصرة والحديثة، فتحقق الأمن والسلام، وقضى على مشاكل العربان قطاع الطرق^(١).

وفي ١٥ ذي الحجة ١٣٣٤هـ نشرت جريدة القبلة خبراً عن تأسيس الحكومة العربية الجديدة التي تشكلت في ٧ ذي الحجة ١٣٣٤هـ بمرسوم شريف يقضي بتأليف هيئة الوكلاء، ومجلس الشيوخ^(٢). وهذا دليل على استقرار الحكم الهاشمي والبداية الجادة لدولة عصرية لها نظامها الإداري والسياسي المعروف.

ولما جاءت الفترة السعودية لحكم الحجاز، وجدنا كثيراً من الكتاب / الرحالة يناقشون هذه الفترة ويشيرون إليها إلى الواقع السياسي، بل ويشيرون إلى إرهابات الحكم السعودي في الحجاز قبل هذه الفترة، فمثلاً هناك إشارات عن آل سعود في نجد وعلاقتهم بالأشراف في الحجاز واستيلائهم على المدينة وتطبيق السلطة بشكل فعال، فهدموا القباب ومنعوا المحمل المصري، وموقف الدولة العثمانية التي أرسلت محمد علي باشا من مصر وانتصر عليهم، وأخذ قادتهم وأرسلهم إلى استانبول حيث تم إعدام بعضهم هناك^(٣).

وقد تهيأ لمنطقة الحجاز عامة ومناطق الحج خاصة في ظل العهد السعودي ما لم يتحقق لها في العهود السابقة من الرخاء والأمن والتنظيم

(١) الحاج عبدالعزيز صبري بك: ٨٣.

(٢) الإمام محمد رشيد رضا: ١٧٣-١٧٥.

(٣) أنظر: محمد البتنوني: ٨٧-٩١.

السياسي والإداري . وكل الحجاج الذين زاروا الحجاز في هذه الفترة يذكرون ذلك ، بل وأكثر منه .

فمثلاً هذا محي الدين رضا يصف الحالة السياسية في الحجاز عام ١٣٥٣هـ ويقول:

إنه يتمتع بالأمن الوارف والصحة الجيدة والسلامة العامة، مما لا يحلم به أحد .

وفي موقع آخر يشير إلى تغير حال قطاع الطريق واللصوص من العربان الذين كانوا يتربصون بالحجاج في العهود السابقة وأصبحوا اليوم في - عهد أب عبد سعود - أقرب إلى الانضباط وعدم الاعتداء على الحجاج ، فإذا سار الحاج وحده في تلك الصحاري بلا رفيق ولم يشأ أن يعطي أحداً من الأعراب المتسولين فلا يجروء أحدهم أن ينال من الحاج شيئاً ولا يمد يده بسوء ، وهذا بفضل الله الذي حول النفوس الشريرة إلى نوع من الخوف بعد تطبيق حكم الشريعة الإسلامية على المعتدي

والسارق والعاث^(١) . ويشير بعض الحجاج الرحالة إلى أن رجال الشرطة في العهد السعودي كانوا قليلي العدد على طوال الطريق من جدة إلى مكة ، ورغم ذلك فإن الأمن مستتب والحمد لله ويعود السبب في ذلك إلى التنظيم الإداري الجديد في الحجاز ، فقد نشرت جريدة أم القرى الرسمية في العشرين من صفر ١٣٤٥هـ الموافق ٣٠ أغسطس ١٩٢٦م قانون التعليمات الأساسية ونظام الحكم في الحجاز ومن أهم المواد في ذلك القانون ما يلي :

١ - الدولة العربية الحجازية دولة ملكية شورية إسلامية ، مستقلة في جميع الشؤون الداخلية والخارجية .

٢ - تنفيذ الأحكام وفق الشريعة الإسلامية وما عليه السلف الصالح .

٣ - تقسيم الحجاز إلى ثمان عشرة إمارة ، ولكل إمارة أمير يحكم

(١) محي الدين رضا ، رحلتي إلى الحجاز : ١٢ ، ١١٥ .

بالنيابة عن الملك وهو مسؤول أمامه عن جميع شؤونها.

٤ - يتولى النيابة عن الملك في الحجاز وإدارة الأمور الأمير فيصل، الابن الثاني للملك عبدالعزيز.

٥ - يشكل بالحكومة الحجازية مجلس للشورى له مواد وقوانين وضعها الجمعية العمومية في الحجاز. ٦ - تشكلت بالحجاز ثلاث من الوزارات وهي الداخلية والخارجية والمالية.

٧ - هناك إدارات تتبع كل وزارة. وفي واقع الأمر فإن هذه التنظيمات مظاهر عصرية لدولة متقدمة، ولكنها شكلية فقط والمرجعية الأخيرة تعود لجلالة الملك الذي يعتبر صاحب السلطة في الدولة والمتصرف فيها وإليه راجع كل أمرها^(١).

رابعاً: أبرز المظاهر الثقافية / البعد الثقافي:

يتحدث مؤلفو الكتب التي بين

أيدينا عن النواحي الثقافية في الحجاز ويسمونها بالتأخر والرجعية، وذلك بسبب تغلب الجهل والامية على سكان الحجاز، فلا مدارس ولا تعليم نظامي، ولا وسائل للثقافة، وذلك في فترة الأشرف المبكرة قبل عهد الشريف حسين، مع أن الحجاز وبالذات مكة والمدينة من أوائل العواصم الإسلامية التي اهتمت بالتعليم والثقافة، لا سيما من خلال الدروس الدينية في الحرمين الشريفين.

ولعل الذي جعل الكتاب والمؤرخين يأخذون هذه الفكرة عن الحجاز وأهله هو ما شاهدوه من مظاهر التخلف والتراجع النهضوي والاجتماعي والسياسي.

ولكن مع بداية حكم الشريف حسين بن علي بدأ الرحالة الحجاج يتحدثون عن المدارس والتعليم والصحافة والأدباء والمعلمين

(١) المصدر نفسه: ٥٠ - ٥١.

والمكتبات، وكل مظاهر الثقافة، ويركزون في ذلك على مكة ودور الحرم المكي الشريف في التأسيس لهذه الثقافة، ففيه كثير من حلقات العلم حيث يدرس فيها بعض العلوم العربية والتفسير على الطريقة القديمة، وأغلب الطلاب والمتعلمين في هذه الحلق من الجنس الجاوي ويشرف عليهم حوالي ثلاثين عاملاً ومعلماً.

أما المدينة النبوية فيصفها البتنوني عام ١٣٢٧هـ بأنها تفتقر إلى المدارس الرسمية، بينما يوجد فيها حوالي سبعة عشر كتاباً لتعليم العلوم البسيطة، أما في الحرم فتقام حلقات التدريس ويدرس فيه الفقه والتفسير، وهنا - في المدينة المنورة - تبرز مدرسة القرآن والحديث والتي يعمل فيها الشيخ محمود شويل ويديرها الشيخ أحمد الدهلوي، وينفق عليها من التبرعات الشخصية التي يجود بها رجال المال والخير الهنود^(١).

وفي هذا الإطار نجد مظهراً بارزاً

من المظاهر الثقافية، وهو المكتبات العامة والخاصة، سواء في مكة أو المدينة أو جدة. وتسمى آنذاك «الكتبخانات»، ففي مكة مثلاً - حسب ما رصده البتنوني عام ١٣٢٧هـ - مكتبتان: الأولى في باب أم هاني بجوار الحرم واسمها كتبخانة شرواني زادة محمد رشدي باشا، أحد ولاة الحجاز السابقين، والثانية في باب الدريبة قرب باب السلام واسمها كتبخانة السلمانية التي أسسها السلطان عبدالمجيد، ووفر لها الكتب من شتات الحرم ومما أرسل من العاصمة العثمانية. ولكل مكتبة مأمور يقوم بشؤونها، ولكل منها فهرس يخط باليد، والكتب فيها من معارف متنوعة نحوية وفقهية وتاريخية سواء باللغة العربية وهي الأعم الأغلب أو باقي اللغات مثل الفارسية والهندية والتركية والجاوية. وهنا يشير البتنوني أن هناك كتباً كثيرة كانت في

(١) محمد لبيب البتنوني: ٣٥٥، وأنظر: عبدالعزيز صبري: ١٢٦.

دواليب زجاجية بالحرم سُرق بعضها، وأتلف بعضها السيل الذي دخل الحرم^(١).

وأما المدينة المنورة ففيها الكثير من الكتبخانات / المكتبات التي ذكرها الرحالة / الحجاج مثل المكتبة المحمودية التي أنشأها السلطان محمود بجوار باب السلام بالمسجد النبوي، وفيها أكثر من أربعة آلاف كتاب بين مخطوط ومطبوع، ولها فهرس مطبوع بالعربية والتركية. والمكتبة المعروفة بكتبخانة شيخ الإسلام عارف حكمت القرية من باب جبريل عليه السلام إلى جهة القبلة، وهي غاية في التنظيم والترتيب والتنسيق، وعدد كتبها لا يقل عن خمسة آلاف وأربعمائة وأربعة من الكتب بين مخطوط ومطبوع. أما مكتبة السلطان عبدالحميد الأول ففيها حوالي أربعة آلاف وخمسمائة وست وتسعين كتاباً، ومكتبة بشير آغا بجوار باب السلام التي يبلغ عدد مقتنياتها من الكتب حوالي ألفي كتاب^(٢).

ومن المظاهر الثقافية أيضاً المطابع والصحف أو الجرائد، حيث تشير المصادر التي بين أيدينا إلى أن الشريف حسين أقدم على إنشاء المطابع والجرائد لتكون وسيلة للنشر المعرفي والثقافي السياسي والاجتماعي، وكان من أول الجرائد في الحجاز جريدة «القبلة» والمطبعة الخاصة بها في مكة، وكان يرأسها الشيخ محمد الساسي، وكانت جريدة القبلة هي الجريدة الرسمية في الحجاز، كما تم إنشاء جريدة باسم الفلاح لكنها لم تستمر في الصدور، وهناك أيضاً مطبعة أخرى أشار إليها البتنوني بأنها مطبعة حكومية خاصة بالولاية العثمانية وتسمى باسمها ويصدر عنها جريدة بالتركية والعربية اسمها حجاز، وهي جريدة شبه رسمية وتنشر كل ما يتعلق بأخبار الحكومة وإعلاناتها^(٣).

(١) محمد لبيب البتنوني: ٥٨ - ٥٩.

(٢) إبراهيم رفعت باشا: ٤٢٣، ومحمد لبيب البتنوني: ٢٥٤.

(٣) الحاج عبدالعزيز صبري بك: ٢١١، ومحمد لبيب البتنوني: ٥٧ - ٥٩.

أما في المدينة النبوية فقد وجدت صحيفة تحمل نفس الاسم: «المدينة المنورة»، تصدر باللغة العربية والتركية في أوقات محدودة، وليست بشكل دائم، فكلما كان الجناب العالي موجوداً في المدينة صدرت لمتابعة ونشر تحركاته اليومية، وناشرة كل ما كتب عنه من مدائح نظماً ونثراً^(١).

أما في العهد السعودي، فقد تحسنت الأمور الثقافية واتضحت معالمها من خلال العديد من الوسائل والأساليب الثقافية التي شكلت ما يعرف بالمظاهر الدالة على ثقافة متنامية ومتجددة.

أمّا على المستوى التعليمي، فقد اهتمت الحكومة بإنشاء المدارس على نفقتها، كما استمر إشرافها على المدارس التي كانت موجودة في الحجاز منذ العهد الهاشمي والعثماني مثل مدارس الفلاح، ومدرسة دار الحديث، ورتبت لها مرتبات وإعانات مالية من الإيرادات الجمركية، كما طورت الحكومة السعودية المناهج

والمقررات فأدخلت اللغة الإنجليزية ليتعلم أبناءها الحجازيون لغة عصرية جديدة يحتاجونها حتى يهيئون للبعثات العلمية التي اهتمت بها الحكومة السعودية، فأرسلت مجموعات من طلابها إلى مصر وإلى بعض الدول العربية، وبعض الدول الأوروبية^(٢).

أما المدينة المنورة فكان التعليم فيها أقل من مكة المكرمة فلا زالت المدارس فيها على عهد الكتاتيب الأولية، وتعنى بتحفيظ القرآن الكريم والحديث الشريف وخصصت لهذا مدارس القرآن والحديث، وكان يديرها الشيخ أحمد الدهلوي ويعمل فيها الشيخ محمود شويل.

المكتبات العامة والخاصة تسمى آنذاك «الكتبخانات» - كتابخانه - مثل كتبخانة

شرواني زاده في مكة المكرمة

(١) المصدر نفسه: ٢٥٥.

(٢) عباس متولي حمادة: ٥٧-٥٨، وأنظر محي

الدين رضا: ٩٩.

أضف إلى ذلك سبعة عشر كتاباً يقوم بتعليم العلوم البسيطة في الوقت الذي كان الحرم النبوي يقوم بدوره التعليمي والتثقيفي كما كان سابقاً، وأكثر اهتماماته بالعلوم الدينية من فقه وتفسير^(١).

والمدارس الحديثة التي أنشئت في العهد السعودي بالمدينة النبوية مدرسة العلوم الشرعية، وهي مدرسة ابتدائية تدرس أحكام الشريعة في الفصول العليا منها، وهناك المدارس الصناعية المهنية - ولعلها الأقدم - حيث تعلم الصناعات اليدوية كالجلود والنسيج والبسط والمفارش، ومدرسة الأيتام^(٢).

وفي جدة يشير أحد الرحالة / الحجاج أنه زار مدرسة ابتدائية وكان ناظرها السيد عمر نصيف، وتجول فيها وزار فصولها ومعلميها، ووصف بناءها بأنه فخم وأورد أعداداً تقريبية لطلابها ومعلميها، فعدد المعلمين ثلاثة عشر معلماً، وعدد تلاميذ

الصف التمهيدي مائة وثلاث وثمانون طالباً، وعدد الصف الأول ثمانية وعشرين طالباً، أما الصف الثاني فعشرون طالباً، والثالث ثمانية طلاب، والرابع ستة طلاب فقط.

(١) محمد لبيب البتنوني: ٣٥٥.

(٢) محمد بن حسن بن عقيل الشريف: المختار من الرحلات الحجازية، رحلة محمد حسين هيكل: في منزل الوحي: ١٢٠٧-١٢٠٩.

كما أشار إلى أن المقررات
والمناهج التي تدرس في هذه المدرسة
مثل المقررات المصرية، ما عدا التاريخ
والجغرافيا، فيدرس فيها ما يتناسب
مع حالة البلاد السعودية^(١).

والجدير بالذكر هنا أن التعليم في
الحجاز كان مقتصرًا على الذكور فقط
ولم يكن تعليم البنات مهينًا بشكل
رسمي، وإنما كان تعليمهن بشكل
خاص، والأسر التي تهتم بذلك ترسل
بناتها إلى كتاب خاص بالبنات، فيه
فقيهات معلمات يدرسن الطالبات
القراءة فقط، ومن يرغب في
الاستزادة من العلم يحضر لبناته
معلمات خاصات في المنازل^(٢).

أما المكتبات في الحجاز فأهمها
مكتبة السيد محمد نصيف في جدة
والتي تحتوي على أنفس المطبوعات
من دور نشر كثيرة ومتعددة من تركيا
ومن المغرب ومن الهند ومن مصر.
وفيها مجموعات كبيرة من
المخطوطات، ومجموعة من الصور
للآثار العربية والإسلامية والأندلسية

التي أهديت إليه من الثري الأمريكي
المستركرين المشهور بحب العرب
والمسلمين.

وهناك مكتبة الحرم المكي بجوار
البيت الحرام، وكان يشرف عليها
الشيخ محمد سياد، ودواليها من غير
زجاج، وفيها حوالي عشرة آلاف
كتاب في شتى فنون العلم والمعرفة من
دين وآداب وتاريخ ونحو وغيرها.
ويكثر المترددون عليها في أيام الحج
من الأدباء والمثقفين للقراءة والنسخ،
والمشرف عليها موظف عجوز يقوم
على خدمتها وتنظيمها، كما أن الشيخ
محمد سياد أشرف على فهرستها
وتصنيفها وتنظيمها بشكل يتيح
للمستفيدين أن يصلوا إلى الكتاب
الذي يريدون ببسر وسهولة^(٣).

أما المطابع والصحف والجرائد
التي كانت في الحجاز إبان العهد
السعودي، فلم يتحدث الرحالة /

(١) محي الدين رضا: ٣٠.

(٢) عباس متولي حمادة: ٥٨.

(٣) محي الدين رضا: ٣٠، ٩٨.

المحجاج الذين تداخلنا مع كتبهم، إلا عن جريدتين تصدران بمكة المكرمة وهما: جريدة أم القرى التي تعتبر الصحيفة الناطقة بلسان الحكومة، ويطلع منها عدد واحد كل أسبوع، أي أنها صحيفة أسبوعية وتتكون من ورقتين من الحجم الصغير وبأعداد متواضعة، لأن المحجّازيين لا يقرأون الجرائد كما يقول عباس متولي حمادة الذي زار الحجاز في حج عام ١٣٥٤هـ، ولكنها تطبع حوالي ثلاثة آلاف نسخة في موسم الحج وتوزع على المحجاج من المشتركين، أما الجريدة الثانية فهي جريدة صوت الحجاز، والتي تصدر مرتين في الأسبوع، وهي جريدة أهلية لا تشرف عليها الحكومة بشكل رسمي.